احمد حسن الزيات

مختارات من الأدب الفرنسي

شعر ونثر

(المجلد الأول — الطبعة الثانية)

مزيدة منقحة

مطبعة الرسالة
١٣٧١ — ١٩٥٢
القاهرة

الثمن ٢٥

احمد حسن الزيات

مختارات من الأدب الفرنسي

شعر ونثر

(المجلد الأول — الطبعة الثانية)

مطبعة الرسالة
١٣٧١ — ١٩٥٢
القاهرة

الفهرس

أقاصيص للكاتب الفرنسى جى دموباسان

صفحة

ضوء القمر ٣
الحلية ١٥
ولد ٣٥
فى الربيع ٥٧
الوصية ٧١
الحامى ٨٣
الخبز الملعون ٩٥
الموسوم ١٠٩
جولى رومان ١٢١
المثال ١٣٩
إكسوس ومكريا (للشاعر الفرنسى هيجيسيب
دى مورو) ١٥٣
رجل البحر للكاتب القصصى ه . أ . مانهود) ١٧٥
قبل ... للكاتب الانجليزى أرنولد بنت) ١٩١
النجوم ... للقصصى الفرنسى ألفونس دوديه) ٢١٥

قصائد وصور للامرتين ولغيره

	صفحة
البحـــيرة	٢٣٣
الوحـــدة	٢٤١
الوادى	٢٤٧
المســـاء	٢٥٥
ذكـــرى	٢٦١
دعـــاء	٢٦٩
الشاعر المحتضر	٢٧٣
حزن أولمبيو ... ... (لفـكتور هوجو)	٢٨٣
تقهقر نابليون عن روسيا (« «)	٢٩٥
المتردد ... ... مقتبسة من أرنست ليجوفيه	٣٠١
الفقراء ... ... (لفـكتور هوجو)	٣٠٩
مغرب الشمس فى البحر (لزعيم النثر الفرنسى شاتوبريان)	٣٢٥
الزلة الأولى ... (للـكاتب الفرنسى لامنيه)	٣٣١



أقاصيص للكاتب الفرنسي جي دموباسان

ضوء القمر

كان الأب مارنيان يحمل اسمه العسكرى (١) عن جدارة . والأب مارنيان قسيس كبير (٢) متعصب ضاوى الجسم ثائر النفس ، إلا أنه مستقيم خيّر . كان ثابت العقيدة لا يتذبذب ، صادق الإيمان لا يشك . وكان يعتقد مخلصاً أنه يعرف الله ويستبطن أسرار حكمته وأغراض مشيئته . كان إذا سار أحياناً بخطاه الواسعة فى ممشى مسكنه الريفى الصغير ونظر فى الشئ بعد الشئ قام فى ذهنه هذا السؤال : « لماذا خلق الله هذا ؟ » ثم يبحث عن الجواب ويلح فى البحث ، متخذاً بفكره لنفسه مكان الله حتى يجد ، وغالباً ما كان يجد . فليس هو الذى يغمغم فى سورة من التقى الخاشع بهذه الجملة : « مولاى ! لقد جلت مقاصدك عن عقول الناس ! » وإنما كان يقول : « أنا خادم الله فيجب أن

---

(١) كانوا فى الزمن الغابر يلقبون الجندى حين دخوله فى الخدمة بلقب . ومارنيان ، لقب هذا القس، اسم مدينة إيطالية تقع فى الجنوب الشرقى من ميلانو . وقد انتصر فيها الفرنسيون على سويسرة سنة ١٥١٥ وعلى النمسا سنة ١٨٥٩ .

(٢) كبير (grand) لقب كان يمنح الأوائل الممتازين فى طبقتهم من المعلمين والكهنة والسادة الخ.

أعرف علل تدبيره وحِكَم تصرفه ، إن لم يكن على وجه اليقين ، فعلى وجه الحدس والتخمين » . ففى رأيه أن كل شىء فى الطبيعة إنما خُلق على مقتضى نظام عجيب ومنطق مسلّم ؛ فكلمتا (لماذا) و (لأن) تتعادلان دائماً فى ميزان عقله . فالفجر يبزغ ليستيقظ الناس فى مسرته وبهجته ؛ والنهار يَضْحى ليَيْنَع الثمر وينضج الحصيد ؛ والمطر يهمى لتحيا الأرض وترتوى الزروع ؛ والمساء يقبل ليأوى الناس إلى المضاجع ؛ والليل يَحْلولك ليلقوا بأنفسهم فى أحضان الكرى ؛ والفصول الأربعة إنما تنطبق كل الانطباق على حاجات الزراعة . وهيهات أن تخالج القسيس شبهة فى أن الطبيعة لا غرض لها ، وأن كل حى فيها إنما يخضع لضرورات الوقت والإقليم والمادة . ولكنه كان يكره المرأة ؛ يكرهها من وراء وعيه ، ويحتقرها بمحض غريزته . وكان كثيراً ما يردد قول المسيح : « أيتها المرأة ! هل بينك وبينى شركة ؟ » ثم يعقّب على هذا بقوله : « كأن الخالق نفسه ساخط على هذا المخلوق ! »

هى فى رأيه الطفلة التى غشيها الدنس اثنتى عشرة مرة

كما زعم الشاعر . وهى التى أغوت الإنسان الأول ولا تزال تواصل عملها المهلك فى بنيه . وهى الكائن الضعيف المخطر الذي يكدر صفو العالم سرا وعلانية . ولقد كان يبغض روحها الجذاب أكثر مما يبغض جسدها المهلك . وكان كثيراً ما يَنسِم عليه حنان المرأة فيتغيظ من عاطفة الحب التى تعتلج دائماً فى نفسها ، وإن كان هو فى حصن منيع من تأثيرها . وكان يرى أن الله لم يخلق المرأة إلا فتنة للمرء ومحنة . فهو جدير بأن يتقيها كما يتقى الشَّرك ، فلا يدنو منها إلا على حذر . ولعلها أشبه ما تكون بالفخ حين تبسط ذراعيها وتفتح شفتيها للرجل . كان لا يتسع صدره إلا للراهبات ، لأنهن نذرن أنفسهن لله فاعتصمن برعايته . ومع ذلك كان يقسو عليهن لأنه لا ينفك يحس فى صميم قلوبهن المغلولة الضارعة ذلك الحنانَ الأبدى الذى يدرك — وهو قسيس — أثره فى نفسه . كان يحس ذلك الحنان فى نظراتهن وهى أشد من نظرات الرهبان اخضلالا بالدمع وابتهالا بالورع ؛ ويحسه فى تجليهن الروحي وقد اختلطت به عواطف جنسهن ؛ ويجده فى نزعات حبهن إلى المسيح . وذلك الحب يوغر صدره بالحنق

لأنه يرى فيه حب المرأة وهوى الجسد . يحس ذلك الحنو الملعون فى وداعتهن نفسها ، وفى رخامة أصواتهن لدى الحديث ، وفى أطرافهن الغضيضة عند النظر ، وفى دموعهن المستكينة حين يؤنبهن بقسوة على خطأ

كان إذا ما خرج من ديرهن نفض مسوحه واندفع يهرول كأنما يفر من خطر . وكان له بنت أخ تعايش أمها فى منزل صغير مجاور ، فكان يحرص كل الحرص على أن يجعل منها راهبة ؛ ولكنها كانت على ظرفها رعناء ساخرة . كانت تضحك منه إذا وعظ ؛ فإذا غضب عليها قبلته بقوة ، ثم ضمته إلى صدرها بشدة ، فيحاول هو مضطرا أن يتملص من هذا العناق الذي يبعث فيه نشوة السرور العذب بإيقاظه شعور الأبوة الراقد فى قرارة كل نفس

كان يحدثها عن الله وهو يسايرها جنباً إلى جنب في مسالك الحقول فتجعل حديثه دَبْرَ أذنيها (١) ، ثم ترسل نظرها فى السماء والعشب والزهر وقد تراءت فى عينها سعادة الحياة وزهرة العيش ، فإذا رأت فراشة تطير عدَت وراءها فقنصتها ثم صاحت :

(١) جعلت حديثه دبراذنيها : أعرضت عنه

« أنظر يا عماه ما أجملها ! إن نفسى تنازعنى إلى تقبيلها ! »

هـذه الحاجـة إلى (التقبيل) البادية فى لثمها هوام الطير وحَبّ الشجر ، أزعجت القسيس وهاجت بلابل صدره ؛ لأنه رأى هنا كما رأى هناك هذا الحنو المتأصل الثابت الذى ينبت دائماً فى قلب المرأة

وفى ذات يوم أقبلت امرأة سادن الـكنيسة (١) ، وهى مدبرة منزل القسيس ، تخبر الأب مارنيان فى حيطة شديدة أن ابنة أخيه عاشقة ! كان القس يحلق لحيته ففجئه روع الخبر فبهت ووجم ، وترك الصابون على وجهه وأقام ساعة لا يتحرك ولا يطرف . فلما ذهب عنه الدهش وثاب إليه الرشد صاح فى وجه المرأة قائلا : « هذا غير صحيح ! إنك تكذبين يا ميلانى ! »

ولـكن المرأة القروية وضعت يدها على صدرها وقالت : « لعننى الله يا مولاى القس إذا قلت فى ابنة أخيك الـكذب . أقول لك إن لها عاشقاً تخرج إلى لقائه كل مساء بعد أن تنام عين أختك . وإنهما ليلتقيان على ضفة النهر ، وتستطيع أن تراهما بعينيك إذا ما ذهبت هناك بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل »

أمسك الرجل عن حلق ذقنه ، وأخذ يمشي ويُعنف فى

---

(١) سادن الـكعبة والـكنيسة ونحوهما : خادمها

مشيه كدأبه فى ساعات التأمل الخطير . فلما استأنف حلْق لحيته جرح نفسه ثلاث مرات فيما بين أنفه وأذنه . وظل طول يومه صامتاً متلدداً(١) وقد انتفخ ودجاه(٢) من الغيظ ، وانتُسف(٣) لونه من الغضب . اجتمع فيه فزع القسيس أمام الحب القاهر ، إلى حنق الوالد ذى الخلق ، والوصى ذى الضمير ، تمكر به طفلة فتخدعه وتسرقه . أضف إلى هذين وجوم الأنانية الذى يعترى الأهل حينما تعلنهم الفتاة أنها اختارت زوجها دون رأيهم وعلى رغمهم

فرغ من عشائه ثم حاول أن يتلهى قليلا بالقراءة فلم يستطع ، وأحس بالغيظ تزداد فورته فى صدره . فلما دقت الساعة عشرا تناول عصاه ، وهى هراوة ثقيلة من شجر البلوط يستخدمها دائماً فى جولاته الليلية كلما خرج إلى عيادة مريض . نظر وهو يبتسم إلى العصا الضخمة ، ثم أدارها فى كفه القوية القروية دورات رحوية مهددة ؛ ثم رفعها فجأة وهو يحرق الأرّم ، وأهوى بها على كرسي فحطمت مسنده . ثم فتح الباب وأراد الخروج ، ولكنه وقف على عتبته مشدوهاً من ائتلاق ضوء

---

(١) متلددا : متحيرا
(٢) الودجان عرقان ينتفخان عند الغضب
(٣) انتسف لونه : تغير

القمر ، وهو ضوء لم يشهد مثله قبله أحد . وكان الله قد وهب للأب مارنيان فكراً وثاباً لا يهبه إلا لآباء الكنيسة ولأمراء القريض ، فوقف ذاهلا متأثراً بجلال الليل الساجى وجمال القمر الشاحب !

كان كل شئ فى حديقته الصغيرة غريقاً فى الضوء اللطيف ، وكانت أشجار الحديقة المثمرة فى صفوفها المنظمة ترسم بالظلال على الممشى أفنانها الرقيقة المخضارَّة ، على حين كانت شجرة زهر العسل المتسلقة على جدار منزله تسطع بالنفحات اللذيذة الحلوة ، فتطيف فى المساء الفاتر الزاهر نوعاً من الأرواح العطرة

أخذ القسيس يتنفس ملء رئتيه ويعب النسيم كما يعب السكير الخمر ؛ ثم مشى وئيد الخطو ، مأخوذ اللب ، مشترك الخاطر ، لا يكاد يجرى على باله ذِكر ابنة أخيه . فلما صار بين الحقول وقف يتأمل السهل كله وقد غمره سحر الليل البهى ، وأغرقه ضياء القمر الملاطف

وكانت الضفادع فى كل لحظة ترسل فى الفضاء أناشيدها القصيرة الإيقاع المعدنية الصوت ، والبلابل البعيدة تضيف إلى

ضوء القمر أغاريدها المتقطعة التى تهيج الأحلام وتحض على القبل . ثم عاد الأب يمشى وقد أحس فجأة بقلبه ينسرق و بقوته تخور دون أن يعلم لماذا ، وود لو يجلس حيث كان فيتأمل جلال الله و يتملى جمال صنعه !

وهناك على ضفة النهير قام صف عظيم من شجر الحور متعرج مع الساحل ينبعث من خلاله غماغم رقيقة من الأصوات المختلفة ؛ وفوق الشاطئ الوعر ومن حوله انعقد بخار أبيض قد اخترقته أشعة البدر فلمع وتفضض ، ثم غطى مجرى الماء بما يشبه القطن الرقيق الشف !

وقف القسيس مرة أخرى وقد تخللت قلبه رقة نامية لا تقاوم ؛ ثم تخالجه شك مريب ، واستولى عليه قلق مبهم ؛ ثم نشأ فى خاطره سؤال من نوع ما كان يلقيه أحياناً على نفسه : « لماذا خلق الله هذا ؟ إذا كان الله قد جعل الليل لباساً ونعاساً فلا هو للشعور ولا للعمل ولا للذكر ، فلماذا جعله أبهى من النهار وألطف من المساء وأعذب من الفجر ؟ » ولماذا يشف هـذا القمر البطئ الغرّار حجب الظلمات فيكون أقرب إلى الشعر والسحر من الشمس ؟

وكأنه خُلق رصيناً كتوماً ليضئ للناس أشياء هى أدق على النهار وأخفى ؟ لماذا كان أبرع الطيور المغردة لا تسكن فى الليل كما تسكن الطيور الأخرى ، وإنما تسجع بأغاريدها وسط الظلام المضطرب ؟ لماذا ضرب هذا النقاب الشفاف على وجه العالم ؟ لماذا يأخذ القلب هذا الارتجاف ، ويملك النفس هذا الانفعال ، ويعترى الجسم هذا الهمود ؟ لماذا تظهر هذه المفاتن المغرية مادام الناس ضاجعين فى أسرتهم لا يرونها ؟ لمن هذا المشهد السحرى الجليل وهذا الفيض الشعرى الجميل الذى ينسكب من السماء على الأرض ؟

وحاول القسيس أن يجد لهذه الأسئلة أجوبة فلم يوفق ؛ ولكنه أبصر هنالك على حواشى المرج المخضوضر ، وتحت قبة الشجر الخائض فى الضباب اللامع ، شخصين يمشيان جنباً إلى جنب . كان شخص الفتى أطول من شخص الفتاة ، وكان الحبيب قد طوق بذراعه جيد الحبيبة ، وهو من حين إلى حين يقبلها فوق الجبين . فبعث محضر العاشقين الحياة فجأة فى هذا المنظر الهامد ، فكأنه لاشتماله عليهما وتعلقه بهما إطار صاغته يد الله خاصة لهذه الصورة

كان العاشقان كأنهما كائن واحد ؛ وهذا الكائن الواحد هو الذى خلق الله له هذا الليل الساكن الساكت ، وقد أقبلا نحو القسيس كأنهما الجواب الحى أرسله الله إليه عن سؤاله

كان القسيس لا يبرح واقفاً وقد اشتد وجيب قلبه ، وزاد اضطراب شعوره ، ولم يبق لديه شك فى أنه يشهد حدثاً من أحداث التوراة كغرام (روت) و (بوز) ، وأن ما يراه إنما هو قضاء لمشيئة الله أراد أن ينفذه فى هذا الزخرف الفخم الذى تحدثت عنه الكتب المقدسة . ثم أخذت تدوى فى رأسه آيات (نشيد الأناشيد) بما فيها من صراخ الرغبة ونداء الجسد وحرقة الغزل . فلم يتمالك أن قال لنفسه : « لعل الله قد خلق هذه الليالى ليجعلها لغرام الناس غلالة من الجمال الأعلى ! » ثم نكص على عقبيه أمام هذين العاشقين المتعانقين وكانا لا يزالان يمشيان !

تلك كانت ابنة أخيه وذلك كان حبيبها ! ولكنه الآن قد سأل نفسه : ألم يكن على وشك أن يعصى الله ؟ أليس الله قد سمح بالحب ما دام قد أحاطه بمثل هذا السنا الباهر ؟ ثم ولى مدبراً وهو ولهان خزيان كأنما دخل معبداً لا يحق له أن يدخله !

الحِلية

كانت من أولئك الفتيات الأنيقات الرشيقات اللاتى يحسبن ولادتهن فى أسرة من أسر الموظفين خطأ من أخطاء القدر . لم يكن لديها صداق يحقق الزواج السعيد ، ولا رجاء يضمن العيش الرغيد ، ولا وسيلة تكشفها للناس فتُعرف وتُفهم وتُحب وتتزوج من رجل غنى سرىّ أمثل ؛ فتركت قيادها للحظ فزوجها بموظف صغير من موظفى وزارة المعارف العمومية

كانت بسيطة الهندام لأنها لم تجد زينتها ، وكانت معذبة النفس لأنها لم تعايش طبقتها . والنساء ليس لهن طبقة ولا جنس ، وإنما يقوم لهن الجمال والظرف والفتنة مقام الأصل والأسرة ؛ فلا ترى فيهن من تفاوتٍ ولا تمايز إلا بالرقة الفطرية ، والأناقة الغريزية ، والذهن المتصرف المرن ، فهى التى تجعل من سواسية بنات الشعب سيدات وعقائل

كان الألم يلح عليها عنيفاً كلما شعرت بأنها خلقت للنعيم والترف ، وهى إنما تعيش فى هذا المسكن الحقير بين هذه الجدران العاطلة ، والمقاعد الحائلة ، والقماش الزَّرى . كانت هذه الأشياء

التى لا تفطن إليها امرأة أخرى فى طبقتها ترمد نفسها بالألم ، وتوقد صدرها بالغضب . وكان منظر الخادمة الصغيرة البيريتونية التى تقوم على تدبير بيتها المتواضع ، يوقظ فى قلبها الحسرات اللاذعة والأحلام الحائرة . كانت تحلم بالأواوين الصامتة تدبجها الطنافس الشرقية ، وتضيئها المصابيح البرنزية ، وبالخادمين الفارهين في السراويل القصيرة ، يرقد كلاهما فى المقعد الوسيع . وكانت تحلم بالبهو الفخم يغشيه الديباج القديم ، وبالأثاث الدقيق يجمله الرياش الكريم ، وبالصالون الأنيق العطر يُجعل لأحاديث العصر مع أخص الأصدقاء وأنبه الكبراء والأدباء ، ممن يشتهي النساء استقبالهم

ولما جلست إلى العشاء على المائدة المستديرة والخوان المرَّدد أمام زوجها ، وقد رفع غطاء الحساء وقال فى وجه منبسط ولهجة راضية : « الله ! ما أطيب هذا اللحم ! إنى لم أر أشهى منه ولا ألذ » كانت هى تفكر فى الأعشية الناعمة الجامعة ، وفى الأدوات الفضية اللامعة ، وفى نسائج الوشى تزين الجدر بصور الأعلام البارزة فى التاريخ ، والأطيار الغريبة فى غابة من غاب عبقر ! كانت تفكر فى الألوان الشهية تقدم فى الصحاف العجيبة ، وفى

الملاطفات الغزلة الهامسة تُسمع فى بسمة كبسمة أبى الهول ، وهى تأكل لحم السمك المورَّد ، أو الدراج المسمن

لم تكن تملك زينة ولا حلية ولا شيئاً مما تتبرج به المرأة وهى لا تحب إلا ذلك ، ولا تظن نفسها خلقت لغير ذلك . وطالما ودت أن تكون موضع الإعجاب والغبطة ، ومنتجع العيون والأفئدة . وقد كانت لها صديقة غنية من رفيقات الدراسة فكانت تكره أن تزورها ، لأن الألم الممض كان يرافقها وهى عائدة . وربما ظلت الأيام الطوال تسفح الدموع الغزار إجابة لدواعى الأسف واليأس والحزن

* * *

فنى ذات مساء عاد زوجها ، وعلى وجهه سمة الجلال ، وفى يده غلاف عريض ، فقال :

خذى ! هاك شيئاً لك . ثم فض الغلاف بقوة وأخرج منه بطاقة مطبوعة كتب فيها :

وزير المعارف العمومية وعقيلته يرجوان السيد (لوازيل)

وعقيلته أن يشرفاهما بحضور الحفلة الساهرة التى ستقام فى ديوان الوزارة يوم الاثنين ١٨ يناير »

ولكنها بدل أن تنبسط وتغتبط وتدهش كما كان يرجو زوجها ؛ رمت الدعوة على المائدة فى غضب وسخط وهي تقول :

— ماذا تريد أن أصنع بهذه ؟

— ولكنى ظننت يا عزيزتى أنك تسرين بهذا . إنك لا تخرجين أبداً ؛ وهذه فرصة جميلة ، حقا جميلة ! ولقد احتملت فى سبيل الحصول على هذه البطاقة مالا تتصورين من الجهد والمشقة . كل الناس يرغبون فيها كل الرغبة ، ويسعون لها كل السعى . وهم لا يعطون الموظفين منها إلا بقدر . سترين هناك العالم الرسمى كله !

فنظرت إليه نظرة الغضب ثم انفجرت قائلة :

ماذا تريد أن أضع على جسمى فى هذه الحفلة ؟

لم يكن الزوج قد فكر فى هذا ، ولكنه أجاب فى خفوت وغمغمة :

عندك الثوب الذى تذهبين به إلى المسرح . إنه على ما أرى ملائم كل الملاءمة . . .

ثم أخذه الدهش والتوى عليه الكلام حين رأى زوجته تبكى ، وأبصر دمعتين غليظتين تنحدران من زاويتى عينيها إلى زاويتى فمها ، وقال فى تمتمة :

ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فتحاملت على نفسها بالجهد العنيف وأجابته بصوت هادئ وهى تمسح الدمع على خديها :

لا شئ ، غير أنى لا أملك ما أتزين به ، ولذلك لا أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة . فأعط هذه البطاقة زميلا من زملائك تكون امرأته أحسن منى جهازاً وأتم أهبة . فابتأس الزوج وقال : لننظر فى الأمر يا ماتيلد ! كم تكلفنا الزينة البسيطة الملائمة التى تغنيك فى مثل هذه المناسبة ؟ ففكرت بضع ثوان تحرر الحساب وتتحرى المبلغ الذى إذا طلبته لا يثير دهش الموظف الصغير ، ولا يوجب رفض الزوج المقتصد ، ثم أجابت جواب المتردد :

لا أعرف ذلك على وجه الدقة . أظن أربعمائة فرنك تبلغ بى إلى هذه الغاية :

اصفر وجهه قليلا ، لأنه كان قد ادخر هذا المبلغ بتمامه ليشترى به بندقية يصطاد بها فى الصيف مع بعض الأصدقاء فى سهل (ننتير) . ومع ذلك قال لامرأته :

ليكن ! سأعطيك أربعمائة فرنك ؛ فاجتهدى أن يكون لك منها ثوب جميل

* * *

دنا يوم الحفل وزينة السيدة لوازيل قد هيئت ؛ ولكنها لا تزال كما يظهر حزينة مهمومة قلقة . فقال لها زوجها ذات ليلة :

ماذا تجدين ؟ إنك منذ ثلاثة أيام فى حال غريبة . . . .

فأجابته : إنى ليحزننى ألا تكون لى حلية . فلا أملك مما يتحلى به النساء شيئاً من معدن أو حجر . وسأكون أحقر من فى الحفل زيًّا وهيئة ؛ وأرى من الخير ألا أذهب إلى هذه الأمسية .

فعقب على قولها بقوله :

تتحلين بالزهور الطبيعية . ذلك أجمل شيء وأطرفه فى هذا الفصل . وبعشرة فرنكات تبتاعين وردتين أو ثلاثاً من أندر

أنواع الورد . فلم يندَ هذا الكلام على كبدها القريحة وقالت : كلا ، فإن أشد الأشياء هواناً وضراعة أن تظهر فى محضر الأغنياء ، بمظهر الفقراء . ولكن زوجها صاح بها قائلا : ما أشد غباءك ! اذهبى إلى صديقتك السيدة فورستييه فاستعيرى منها بعض الحلى ، فإن بينكما من قديم الصداقة ووثيق العلاقة ما يتسع لمثل ذلك

فصاحت صيحة الفرح وقالت . هذا صحيح ! ومن العجب أنه لم يجر على بالى

وفى صبيحة الغد ذهبت إلى صديقتها فقصت عليها ما همها وغمها ، فلم تكد تسمع شكواها حتى أسرعت إلى خزانتها فأخرجت منها صندوقاً عريضاً وفتحته ، ثم قدمته إلى السيدة لوازيل وهى تقول : اختارى يا عزيزتى

فوقع بصرها أول ما وقع على الأساور ؛ ثم على عقد من اللؤلؤ ، ثم على صليب بندق من الذهب قد رصعته بالحجارة يدُ صَناع . فجربت على نفسها الحُلى فى المرآة ، ثم أخذتها حيرة فلم تقطع العزم على ما تأخذ وما تدع ، فقالت لصديقتها : ألم يعد لديك شىء آخر ؟ فأجابتها : بلى ! ابحثى . فإنى لا أعرف ماذا يعجبك

وعلى حين بغتة وجدت فى علبة من الديباج الأسود قلادة فاخرة من الماس ، فخفق قلبها خفوق الرغبة الملحة ؛ ثم تناولتها بيد مضطربة وتقلدتها على ثوبها المجهَّز فإذا هى على ما صورت فى الخيال ، وما قدَّرت فى الأمل فسألت صديقتها فى تردد وقلق : أتستطيعين أن تعيرينى هذه القلادة ؟ لا شىء إلا هذه القلادة ! فأجابتها صديقتها : نعم ولا شك . فأهوت على نحرها تقبله فى حمية وطرب وولت مسرعة بهذا الكنز

* * *

أقيمت الحفلة الساهرة ونجحت السيدة لوازيل فكانت أبدع من حضرها من النساء رشاقة ولباقة وبهجة . تدفقت فى السرور متأنقة متألقة ، فاسترعت الأنظار وتصبت القلوب ، فتسابق الرجال وبخاصة موظفو مجلس الوزراء إلى السؤال عنها والتعرف إليها والرقص معها . حتى الوزير نفسه فقد ألقى إليها باله

كانت ترقص فى نشوة من الغبطة وفورة من اللذة ؛ وقد محى من ذهنها كل شىء فلم تعد تفكر إلا فى انتصار جمالها ،

وفى مجد انتصارها ، وفي ظل رقيق من ظلال السعادة بسطته عليها التحيات التى قدمت إليها ، والإعجاب الذى انثال عليها ، والرغبات التى تيقظت فيها ، والفوز الكامل الذى يبهج بسحره فؤاد المرأة

تركت الحفل زهاء الساعة الرابعة من الصباح ، وكان زوجها منذ تنصف الليل قد غلبه النوم فأخذ مرقده فى بهو صغير خلا من الناس هو وثلاثة من المدعوين كان نساؤهم لا يزلن يقصفن فى نشاط ومرح . فلما همت هى وهو بالانصراف ألقى على كتفيها الثياب التى أحضرها للخروج ، وهى ثياب متواضعة مبتذلة تتنافر بحقارتها مع أناقة ما تلبس من زينة المرقص . وقد شعرت هى بذلك فأرادت أن تتسلل حتى لا يلمحها النساء الأخر وهن يرتدين معاطف الفراء الفاخر . غير أن زوجها اعتاقها قائلاً : انتظرى ؛ فقد يصيبك البرد . وسأطلب عربة . ولكنها تصامَّت عن كلامه وانحدرت مسرعة على السلم . فلما سارا في الشارع لم يجدا مركبة فمشيا ، وكلما أبصرا على البعد حوذيا صاحا به فلا يقف

أخذا سبيلهما إلى (السين) هابطين قانطين يقرقفان

من البرد ، فوجدا بعد لأى على رصيفه مركبة عتيقة من تلك المراكب التى تسير وهى نائمة ، ثم لا تُرى فى باريس إلا تحت الليل كأنما تخزى أن تظهر مهانتها فى وضح النهار . ركباها إلى دارهما فى شارع (الشهداء) ودخلاها حزينين : أما هى فلأنها تتحسر على انقضاء ما كانت فيه ؛ وأما هو فلأنه يتذكر أن من واجبه أن يكون فى الوزارة الساعة العاشرة

نضت عن كتفيها ، أمام المرآة ، الثياب التى تدثرت بها حتى تنظر إلى نفسها وهى فى مجدها مرة أخيرة . ولم تكد تجيل اللحظ فى جيدها حتى صاحت صيحة منكرة ! إنها لم تجد على نحرها تلك القلادة ! فأقبل عليها زوجها فى نصف ثيابه يسألها ماذا أصابها ، فالتفتت إليه هالعة تقول : أنا . . . أنا . . . لا أجد قلادة السيدة فورستييه ! فانتفض فأعماً يصيح وقد هفا قلبه من الجزع :

— ماذا ؟ كيف ؟ لا يمكن أن يكون هذا !

وطفقا يبحثان فى ثنايا الثوب ، وفى طوايا المعطف ، وفى جيوب هذا وذاك ، وفى كل مكان هنا وهناك ، فلم يجداها .

فقال الزوج للزوجة : أأنت على يقين من أن القلادة كانت فى عنقك ساعة تركت المرقص ؟ فأجابته : نعم ، ولقد لمستها بيدى وأنا فى دهليز الوزارة . فقال لها : ولكنك لو كنت فقدتها ونحن فى الشارع لكنا سمعنا وقعها حين سقطت ؛ فلا بد أن تكون فى المركبة . فقالت له : نعم . هذا جائز . فهل تذكر رقم المركبة ؟ فأجابها : كلا ، وأنت ؟ ألم تلحظيها ؟ فقالت : كلا

فرنا إليها ورنت إليه وكلاهما لا يملك فؤاده من الجزع . وأخيراً مضى لوازيل فلبس ثيابه وقال : سأرجع فى الطريق التى قطعناها على الأقدام فلعلى أجدها . ثم خرج وترك امرأته فى ثياب السهرة ، وقد تطرحت من الخور على أحد المقاعد ، لا تشتهى النوم ، ولا تطلب الدفء ، ولا تملك الفكر . ثم عاد فى الساعة السابعة من غير أن يجد شيئاً . وما لبث أن ارتد إلى دائرة الشرطة يسجل المفقود ، ثم إلى إدارات الصحف يعلن المكافأة ، ثم إلى شركة العربات الصغيرة ينشد المركبة ، ثم إلى مكان يهديه إليه بصيص من الأمل

وكانت هى تنتظر طول النهار على حالها الأليمة من الذهول

والوله . وفى المساء عاد لوازيل ساهم الوجه كاسف البال لأنه لم يكتشف شيئاً . ولما أعياه الأمر قال لزوجته : لا بد أن تكتبي إلى صديقتك تخبرينها أن مشبك القلادة انكسر وأنك بسبيل أن تصلحيه . ذلك يعطينا المهلة لنتخذ تدبيراً آخر . فكتبت ما أملاه عليها

* * *

وفى آخر الأسبوع وقفت آمالهما على شفا اليأس ، فأعلن لوازيل أن لا بد من وسيلة لنشترى قلادة بدل القلادة

وفى صباح الغد أخذا علبة الحلية وذهبا بها إلى الجوهرى الذى كتب اسمه عليها فسألاه عنها . فقال بعد أن رجع إلى سجلاته لست أنا يا سيدتى الذى صنع القلادة ، وإنما صنعت هذه العلبة فقط . فذهبا يضطربان فى سوق الجواهر ينتقلان من صائغ إلى صائغ فيسألان ويبحثان حتى وجدا آخر الأمر فى دكان من دكاكين (الباليه رويال) قلادة من الماس تشبه فى نظرهما القلادة المفقودة كل الشبه . . . كان ثمنها أربعين ألف فرنك ؛ ولكن

الجوهرى رضى أن ينزل عنها بستة وثلاثين ألفاً . فرجوا منه ألا يبيعها من أحد قبل ثلاثة أيام ؛ وشرطا عليه أن يعود هو فيشتريها منهما بأربعة وثلاثين ألف فرنك إذا هما وجدا القلادة الأولى قبل آخر فبراير

كان لوازيل يملك ثمانية عشر ألف فرنك تركها له أبوه ، فلا مناص من أن يقترض الباقى . اقترض ألفاً من هذا وخمسمائة من ذاك ، وخمس ليرات من هنا وثلاثا من هناك ، كتب على نفسه الصكوك المحرجة ، وأخذ على ذمته العهود المخربة ، وتردد على كل مراب ، واختلف إلى كل مقرض

عرّض آخرة عمره للخطر ، وغامر بإمضائه وهو لا يضمن الوفاء بما أذمّ . وفى حال يرجف لها القلب فرقاً مما يتجرعه من هموم المستقبل ، وما يتوقعه من بؤس العيش ، وما يخشاه من حرمان الجسم ولوعة القلب ، ذهب يشتري القلادة الجديدة و يضع على منضدة الجوهرى ستة وثلاثين ألف فرنك !

ولما أخذت السيدة فورستييه الحلية من السيدة لوازيل قالت لها فى هيئة غاضبة ولهجة عاتية : لقد كان ينبغى أن ترديها قبل

ذلك ، فقد كنت فى حاجة إليها

ثم رفعت العلبة دون أن تفتحها ، فكفت بذلك صديقتها ما كانت تخشاه . فلقد كانت تقول لنفسها : ماذا عسى أن تظن السيدة فورستييه إذا لحظت أن القلادة غير القلادة ؟ ألا تحسبنى لصة ؟

* * *

ذاقت السيدة لوازيل عيش المعوزين المرير الخشن ، وحملت نصيبها من ذلك دفعة واحدة فى بسالة وقوة

كان لا بد من قضاء هذا الدين الفادح وستقضيه . استغنت عن الخادم ، وانتقلت من المنزل ، واستأجرت غرفة على أحد السطوح ، وزاولت الأعمال الغليظة فى البيت ، وباشرت الأمور البغيضة فى المطبخ ، فغسلت الأطباق ، وأتلفت أظافرها الوردية فى صدإ القدور ودسم الأوانى ، (وصبنت) القذر من الأبيضة والأقمصة والخرق ونشرتها على الحبل ؛ ثم هبطت الشارع فى كل صباح لتصعد بالماء ؛ وتقف عند كل طبقة تتنفس الصعداء

من التعب ، ولبست لباس السوقة واختلفت إلى الفاكهانى والبدال والقصاب وعلى ذراعها السلة فتساوم وتقاوم وتدفع الغبن عن كل بارة من نقودها القليلة . فإذا تصرم الشهر وجب عليها أن توفى صكا ، وتجدد صكا ، وتطلب مهلة

وكان الزوج فى المساء يشتغل بتبييض الحساب لتاجر ، وفى الليل ينسخ صوراً من بعض الأصول كل صفحة بربع فرنك

ودأب الزوجان على هذه الحال عشر سنين . وفى نهاية هذه المدة كان قد أدبا الدين كله بسعره الفاحش وربحه المركب

وكانت السيدة لوازيل قد أخلقت جِدَّتها وبدت فى رأسها رواعى المشيب . وكان من طول قيامها بشؤون المنزل الفقير أن أصبحت قوية غليظة جافية ، تكاد لا تراها إلا شعثاء الشعر ، حمراء اليد ، مقلوبة الثوب ، ترفع صوتها فى الكلام ، وتغسل أرض الغرف بالماء الغمر ؛ ولكنك تراها فى بعض أوقاتها تجلس إلى النافذة حين يجلس زوجها إلى المكتب ، فتفكر فى تلك الأمسية الذاهبة ، وفى تلك الحفلة السافرة التى كانت هى فيها مهوى القلوب ومَراد الأعين . ما الذى كان يحدث لو أن هذه الحلية لم تفقد ؟

من يدرى ؟ من يدرى ؟ إن الحياة غريبة الأطوار سريعة التقلب ، وإن موتك أو حياتك قد يكونان رهنا بأحقر الأشياء

* * *

وفى ذات أحد من الآحاد بينما كانت ماتيلدا ترفه عن نفسها عناء الأسبوع فى رياض الشانزليزيه وقع بصرها فجأة على السيدة فورستييه ومعها طفل تنزهه وتروِّضه . وكانت لا تزال رفافة البشرة رائقة الحسن فتانة الملامح ، فاعتراها لدى مرآها اضطراب وقلق . أتذهب إليها فتكلمها ؟ نعم ! ولم لا ؟ لقد أدت الآن كل ما عليها ، فلم لا تفضى بكل شيء إليها ؟

دنت السيدة لوازيل من صديقتها القديمة وقالت لها : عمى صباحاً يا جان !

ولكن صديقتها أنكرتها ، وأدهشها أن تسمع امرأة من عرض الطريق تحييها بهذه الألفة ، وتناديها من غير كلفة ، فقالت مغمغمة :

ولكن ... سيدتي ... لا بد أن يكون هذا الأمر قد

اشتبه عليك . فقالت لها : كلا ! أنا ماتيلد لوازيل

فصاحت السيدة صيحة الدهش وقالت : أوه ! صديقتى المسكينة ما تيلد ! لشد ما تغيرت بعدى ! فقالت : نعم ! لقد كابدت برحاء الهموم ، وعانيت بأساء العيش منذ غبت عنك ، وذلك كله بسببك

— بسببى ؟ وكيف ذلك ؟

— إنك تذكرين ولا شك تلك القلادة الماسية التى أعرتنى إياها يوم حفلة الوزارة

— نعم ، و بعد ؟

— إننى أضعتها

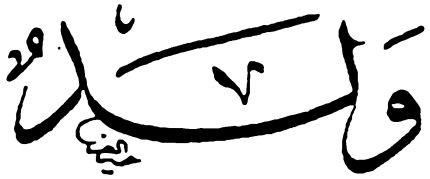
— وكيف أضعتها وقد رددتها إلىَّ ؟

— لقد رددت إليك قلادة أخرى تشبهها كل الشبه. وهاهى تلك عشرة أعوام قضيناها فى أداء ثمنها . وليس ذلك باليسير علينا كما تعلمين ، فاليد خالية والمورد ناضب والجهد قليل . وقد انتهى الأمر والحمد لله ، وأصبحت على هذه الشدة راضية مغتبطة . فقالت السيدة فورستييه فى تؤدة وبطء :

— أتقولين إنك اشتريت قلادة من الماس بدل قلادتى ؟

— نعم ، ألم تلاحظى ذلك ؟ هـه ؟ إنها لا تختلف عنها فى شىء وكانت شفتاها قد افترتا عن ابتسامة تنم على الكبر والسذاجة . ولكن السيدة فورستييه أخذت يديها فى يديها وقالت فى لهجة الإشفاق والعجب :

— مسكينة يا صديقتى ماتيلدا ! إن قلادتى كانت كاذبة ! وما كان ثمنها يزيد على خمسمائة فرنك !


وَلَدٌ

كان الصديقان الحميمان يتنزهان فى الروضة الفينانة المزهرة ، والربيع البهيج الطلق يزخر فى جنباتها بالحياة . كان أحدهما عضواً فى مجلس الشيوخ ، وكان الآخر عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، وكان كلاهما وقور النفس رزين الطبع يصدر عنهما الرأى أو الحكم مدعماً بالدليل مؤيداً بالحجة ، ولكن فى شموخ وأبهة ، شأن رجال الوجاهة والشهرة . تحدثا أولا فى السياسة ، فتبادلا القول فى بعض الأسماء ، لا فى بعض الآراء . وحديث الشخصيات فى موضوع السياسة يتغلب دائماً على حديث العقل ، ثم أثارا بعض الذكريات وصمت كل منهما ، وظلا يسيران جنباً إلى جنب وقد استرخت مفاصلهما على فتور الهواء

وكان فى الروضة المعطار حوض من القرنفل الأصفر ينفح بالعبير اللطيف الأرِج ، وكومة من الزهر النضير تفض على النسيم نوافج المسك ، وشجرة من شجر الأبنوس مكسوة بالعناقيد الصفر تذر ذَرورها فى الهواء ، وهو أشبه شىء بدخان من النضار أو بمساحيق العطار ! تفوح منه رائحة العسل ويحمل بذور

الشجرة العطرة إلى أطباق الفضاء

وقف عضو الشيوخ ورشف رشفة من هذا الغمام اللاقح الطافى ، وأخذ يدمن النظر فى الشجرة العاشقة وهى تتألق تألق الشمس وترسل بذورها فى الجو ، ثم قال : « حينما يفكر المرء فى أن هذه الذرات التى يدركها الشم ولا يدركها البصر ، ستخلق بعض الموجودات على عشرات الفراسخ من هذا المكان ، وسترعش ألياف الشجرات الأنثى وتُمير ماءها فتنتج كائنات ذوات جذور تنشأ من بذرة كما نشأنا ، ويدركها الفناء كما يدركنا ، ويخلفها على الأرض خلف منها كما يخلفنا ! ... ثم جمد الشيخ أمام الشجرة المشرقة وأرجها الشذِىُّ المحيى ينبث منها كلما اهتز النسيم ، وعاد يقول : « آه ياصديق ! لو طُلب إليك أن تحسب حساب أطفالك لا ارتبكت ! دونك مثلا هذه الشجرة : إنها تنسل بسهولة ، ثم تتخلى عن نسلها من غير ندم ، ثم لا تشغل بالها به بعد ذلك »

فقال عضو الأكاديمية : « إنا نصنع نسلنا مثل ما تصنع هذه الشجرة نسلها يا صديقى » فقال عضو الشيوخ : « نعم

لا أنكر أننا نتخلى عنه فى بعض الأحوال ولكننا نعرفه ، وفى ذلك سموٌّ نوعنا على غيره » . فهز الآخر رأسه وقال :

ليس هذا الذى عنيت يا صديقى . إنك لا تجد فى الناس رجلا ليس له أولاد مجهولون ممن يسمونهم أبناء المعارضة(١) ولدَهم من غير حساب ، كما تنتج هذه الشجرة من غير وعى

لو رُحنا نعد النساء اللاتى وصلنا الأسباب بهن لشق على الحاسب أن يحصى الأبناء ، كما يشق على هذه الشجرة أن تحصى الخلفة »

إذا تذكر المرء من خالط من النساء فى المقابلات العارضة والساعات الذاهبة أمكنه أن يعد منهن مائتين أو ثلاثمائة ، ولا تستطيع أن تزعم يا صديقى أن هذا العدد يخلو من واحدة على الأقل قد اشتملت على ولد ، ولا تستطيع أن تنفى أن لك على بلاط السكك أو فى أعماق السجون ابناً شريداً يسرق ويقتل الأخيار من أمثالنا ، أو بنتاً تزاول البغاء فى أحد المواخير

---

(١) أولاد الزنى

أو تعالج الطبخ فى أحد البيوت إذا كان الحظ قد أسعفها ففصلها عن أمها

ولا يغرب عن بالك فضلا عن ذلك أن كل امرأة ممن نسميهن (عموميات) لها ولد أو ولدان لا يعرف لهما أب ، ينتزعهما من حضنها من شاء بعشرة فرنكات أو عشرين ؛ كل مهنة يقدر فيها أربابها الأرباح والخسائر ، وهؤلاء الأطفال هم « خسائر » هذه المهنة

من هم الوالدون ؟ أنت — أنا — نحن جميعاً — نحن معشر الذين يدعونهم المهذبين . هؤلاء الأطفال هم نتائج مآدبنا البهيجة ، وأماسينا اللاهية ، وساعاتنا الغافلة ، التى ينتشى فيها الجسد فيدفعنا إلى المغامرة

إن لصوص النهار ورواد الليل وأخدان الجريمة هم أطفالنا ، ومن الخير لنا أن نكون آباءهم ، فإن هؤلاء الأوباش المجرمين يلدون أيضاً ! !

إن لى من هذا الأمر نصيباً عجيباً سأقصه عليك فى حادثة شنيعة لا تزال تحز فى نفسى وتثقل على ضميرى

إنها تبكيت لا يفتر ، وندم لا ينقطع ، وارتياب لا ينجلى

وقع فى نفسى وأنا في الخامسة والعشرين من عمرى أن أقطع المراحل مشياً إلى « بريتانيا » مع صديق من أصدقائى هو مستشار الدولة اليوم . فبعد خمسة عشر يوماً أو عشرين من السير العنيف قطعنا فيها (الكوت دنور) وقسما من (فينستير) بلغنا (دورنينيز) ومن هناك وصلنا رأس (راز) الموحش عن خليج (تريباسيه) وقضينا الليل فى قرية من قراها ينتهي اسمها على ما أذكر **بأوف** . ولما تنفس الصبح وجدت صديقى قد تحلل به السفر (١) فلزم السرير . وأقول السرير بحكم العادة ، أما الواقع فإن فراشنا لم يكن إلا حزمتين من القش

على أن إقامة المريض فى هذا المكان مستحيلة ، فأكرهت صديقى على أن ينهض ، ثم استأنفنا المسير حتى دخلنا (أوديرن) فى الساعة الرابعة أو الخامسة من المساء . وفى الغد ظهرت عليه دلائل الصحة فسرنا ، حتى إذا ملكنا الطريقُ اعتراه مرض ثقيل فلم نبلغ (بون لابيه) إلا بشق الأنفس . وفى هذه

---

(١) تحلل به السفر : تعب

البلدة وجدنا فندقاً على الأقل فنام صديقى ، وعاده الطبيب فقرر أن ما به حمى شديدة ، ولـكنه لم يتبين طبيعتها بعد

هل تعرف (بون لابيه) ؟

— كلا !

إنها أعرق البلاد أصلافى بريتانيا ، تجمَّع فيها ما تميز به هذا القطر من عادات وأخلاق وأساطير . ولا تزال إلى اليوم كما هى لم تتطور ولم تتغير . وأقول (إلى اليوم) لأنى لا أبرح وا أسفاه أزورها فى كل سنة : حصن قديم تخوض أبراجه المنيفة فى غدير كئيب واسع يحوّم عليه أسراب من الطيور المتوحشة ، ونهر صغير يخرج من هناك فتصعد المراكب الساحلية فيه إلى المدينة ، وشوارع ضيقة ، ومنازل عتيقـة ، ورجال يلبسون القبعـة الـكبيرة والسترة المطرزة وأربعة أصدرة بعضها فوق بعض . وبنات وافيات الجسم ، وسيمات الوجه ، بضَّات البشرة ، يتدرعن بصدار من الجوخ ، ويتقنعن بقناع غريب ينسج من خيوط الذهب أو الفضة

كانت خادمة الفندق الذى حللناه واحدة منهن لا يزيد عمرها على ثمانية عشر ربيعاً . لها عينان زرقاوان يخترق زرقتهما الشاحبة نقطتان صغيرتان سوداوان ، وأسنان قصيرة نضيدة مشدودة كأنما

خلقت لطحن الحجر . وكانت لا تعرف اللغة الفرنسية ، ولا تتكلم إلا اللهجة البريتونية ؛ وتلك حال الكثرة الغالبة فى هذا الإقليم

لم يرفضَّ الألم عن صديقى ، ولم تبد عليه أعراض مرض معين ، ومع ذلك منعه الطبيب أن يسافر وأمره بالراحة التامة . فقضيت النهار بجانبه، وكانت الخادمة لاتنفك تدخل علينا ومعها الطعام أو الدواء ، فأعابثها قليلاً فتأنس وتلهو ، ولكننا ما كنا نتحدث بالطبع ما دمت لا أعرف لغتها ولا تعرف لغتى

وفى ذات ليلة تأخرت طويلاً عند المريض ، فلما انصرفت إلى غرفتى واجهت الفتاة وهى ذاهبة إلى غرفتها أمام بابى المفتوح فدفعنى عبث الدعابة من غير تدبير ولا تفكير أن لففت قوامها بذراعى ثم جذبتها وهى فى دهشة المفاجأة إلى غرفتي ثم أغلقتها ؛ فشخصت ببصرها إلى فزعة مرتاعة مستطارة ، ولم تجرؤ على أن تصيح خشية أن يفتضح الأمر فيطردها سيدها ثم ينفيها أبوها

فعلت ذلك أول الأمر مزاحا ودعابة كما قلت ، ولكنى لم أكد أراها فى غرفتى حتى ملكتنى رغبة قوية فى استبقائها . ثم كان بينى وبينها صراع طويل صامت ؛ صراع الجسم للجسم

على نحو ما يفعل المصارعون من أهل الرياضة ؛ فالأذرع مبسوطة مقبوضة ملتوية ، والنفَس مطرود مبهور لاهث ، والجلد محمر يتصبب منه العرق . أوه ! كانت تدافع مستبسلة ، وتقارع مستقتلة ، وكنا نصطدم مرة بعد مرة بكرسى أو حاجز أو منضدة ، فنسكن برهة ونحن مشتبكان مخافة أن توقظ هذه الجلبة بعض الناس ثم نعود إلى الصراع هجوما منى ودفاعا منها . وأخيرا خذلتها قواها فسقطت منسرقة خائرة

لم تكد تنهض حتى فزعت إلى الباب فرفعت رتاجه وولت مدبرة . لم ألقها فى الأيام التالية إلا نادرا فكانت تتحاشى أن أدنو منها . ثم تماثل العليل وأبلّ فأخذنا نتأهب لاستئناف السفر . وفى ليلة الرحيل رأيتها بعد موهن من الليل تدخل غرفتى حافية فى قميص النوم فألقت نفسها بين ذراعى وحضنتنى بقوة وشغف ثم باتت تقبلنى وتلاطفنى باكية معولة حتى الصباح ، فلم تدع شيئاً مما تنطوى عليه العاشقة البكاء من إشارات الحنان ودلالات اليأس إلا بذلته

مرت ثمانية أيام على هذا الحادث المألوف فى مثل هذه الحال

فنسيته . وانقضت ثلاثون سنة لم يخطر فيها ببالى ، ولم أعد فى خلالها إلى « بون لابيه »

وفى سنة ١٨٧٦ رجعت إليها عرضاً واتفاقاً ، فقد كنت أجول في بريتانيا ذلك العام أجمع الوثائق وأتصور المشاهد لكتاب أؤلفه

كل شئ فى هذا البلد على ما عهدته ، فالحصن لا يزال على المدخل مخوِّضاً بجدرانه المغبرة فى الغدير ، والفندق باق كما كان إلا أنه ترمم واستحدث . فلما دخلته استقبلنى فتاتان من أهل هذا الإقليم فى الثامنة عشرة عليهما نضرة الجمال وغضاضة الصبى ! وقد لبستا لبسة هذا الإقليم : صدار ضيق من الجوخ على الصدر ، وقناع من نسيج الفضة على الرأس ، وصفحة عريضة مرصعة على كل صُدغ

كانت الساعة السادسة من المساء توشك أن تحين ، فجلست إلى المائدة أتعشى وصاحب الفندق نفسه هو الذى تقدم إلى خدمتى ، فأجرى القدر المحتوم على لسانى هذا السؤال :

— أتعرف المالكين القدماء لهذا الفندق ؟ لقد قضيت

فيه اثنى عشر يوماً منذ ثلاثين سنة ، فأنا أحدثك عن شيء بعيد . فأجاب الرجل قائلا :

ـــ لقد كانوا أهلى ياسيدى

فقصصت عليه كيف عاقنى مرض صديقى عن السفر وعقلنى هذه المدة ... فلم يدعنى الرجل أتم الحديث وقال :

ـــ أوه ! إنى أذكر ذلك جيداً . لقد كنت يومئذ فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرى . لقد كنت تنام فى الغرفة القصوى وصاحبك ينام فى الغرفة التى اتخذتها انفسى على الشارع »

وفى هذه اللحظة لاقبالها جرى على خاطرى ذكرى الخادمة الصغيرة فسألته :

أتذكر تلك الخادمة الرشيقة التى كانت يومئذ عند أبيك وقد كان لها ، إذا لم تخنى الذاكرة ، عينان جميلتان وأسنان نضيدة عذبة ؟ فقال :

« نعم ياسيدى ، لقد ماتت بحمى النفاس بعد ذلك بزمن » ثم أشار بيده نحو الفناء ، وكان فيه رجل ضئيل أعرج يعمل

فى روث الاصطبل ، وقال : (هذا ولدها)

فغلبنى الضحك وقلت :

« إنه دميم وليس فيه شبه من أمه ، فلابد أن يكون لأبيه » فقال الفندق : ذلك ممكن ، ولـكن أحداً من أهل البلد لا يعرف من أبوه . وقد ماتت هى من دون أن تقول شيئاً عنه . ولقد كانت دهشة الناس شديدة حين علموا أنها حامل ، ولم يثقوا بصدق الخبر

عرتنى هزة كريهة ونال قلبي مس أليم كأن غمامة من الهم الثقيل تتكاثف وتقترب . ثم رجعت بصرى فى الرجل وهو بالفناء وقد حمل إلى الخيول دلوين من ماء النهر فـكان يمشى متحاملا على نفســـه وقد بدت عليه دلائل الجهد من العرج . كان خلق الثوب ، قذر الجسم ، زَرِىّ الهيئة ، طويل الشعر أشعثه ، قد تدلت على وجنتيه خصل مصفرة منه كأنها الحبال

عاد الفندق إلى حديثه يقول : « إنه ياسيدى قليل الغناء ضئيل القيمة ، وقد آويناه إلى بيتنا شفقة ورحمة . ولعله كان يوجه الوجهة الحسنى لو رُبى كما يُربى الناس . ولـكن ماذا يصنع

يا سيدى ؟ ليس له أب ولا أم ولا مال . لقد أدركت والدىّ الرحمة على الطفل ، ولـكنه ليس طفلهما ، وأنت تعلم ماذا أعنى »

لم أعقب على كلامه بشئ ، وقضيت الليلة فى غرفتى القديمة ساهداً أفـكر فى خادم الاصطبل الفظيع ، وأردد فى نفسى هذا السؤال : « أما لو كان هذا ابني ؟ ! . . . أليس من الممكن أن أكون أنا الذى قتلت تلك الفتاة وولدت هذا المخلوق ؟ »

قررت فى نفسى أن أكلم هذا الرجل وأن أسأله عن تاريخ مولده بالدقة ، فإن فرق شهرين يخرجنى من هذا الشك

وفى غدوة اليوم التالى بعثت فى طلبه فوجدته لا يعرف من الفرنسية شيئاً ، وقد بدا عليه مع ذلك أنه لا يفقه قولا . فطلبت إلى إحدى الخادمات أن تسأله عن سنه فما أحار جواباً ، ووقف أمامى وقفة الأبله يدير قبعته بأصابعه الـكريهة المعقدة ، وهو يضحك ضحكة الغباء والبلادة فيبدو على مزاوى شفتيه وعينيه شئ من ضحك أمه

على أن صاحب الفندق علم ما أسأل عنه فذهب يبحث عن شهـادة ميلاد المسكين فعلمت منها أنه أبصر الدنيا لثمـانية شهور

وستة وعشرين يوماً من تاريخ مرورى بهذا البلد . فإنى أذكر يقيناً أنى بلغت (لوريان) فى ١٥ أغسطس ؛ وقد ذكر فى شهادة الميلاد أن « الأب مجهول » والأم تسمى (جان كرادك)

حينئذ أخذ قلبى يشتد وجيبه ويسرع نبضه ، وشعرت أن لسانى ينعقد ، وأن صوتى يختنق ، وتفرست فى هذا الغليظ الجافى وقد بدا شعره الكثيف الأصفر أقذر شكلا من المزبلة . وضايقته نظراتى فكف عن الضحك وأدار وجهه ثم انصرف

كنت كل يوم أنقل خطاى الوانية على طول النهر الصغير والفكر الممض فى هذا الموضوع لا يبرح خاطرى . ولكن ماذا يغنى التفكير ؟ ليس هناك ما يجلو الشك ويكشف الحقيقة ، وكنت أقضى الساعات بعد الساعات أوازن فى موضوع أبوتى من الأسباب الموجبة والسالبة ، والوجوه الموافقة والمخالفة . ثم أستغرق فى فروض مشكلة معضلة تعود بى على استمرار إلى موقفى الأول من الارتياب الشنيع ، ثم إلى ما هو أشنع من ذلك وهو الاعتقاد بأن هذا الرجل ابنى

لم أستطع الغداء ، فأويت إلى غرفتى وأخذت أراود النعاس

طويلاً ، حتى أخذنى نوم مضطرب تزعجه الأحلام المفزعة والرؤى المخيفة . رأيت فيما يرى النائم أن هذا الوبش القذر كان يسخر مني فيدعونى : (بابا) ، ثم تحول إلى كلب عقور وهجم على ساقى بنابه فلم أنج منه إلا بجهد . فاقتفى أثرى وكان يتكلم ويسب بدل أن ينبح ؛ ثم مثل بين يدى زملائي أعضاء الأكاديميه وهم مجتمعون ليفصلوا فى أمر أبوتى له وقد صاح أحدهم بهم : « هذا أمر لا شبهة فيه . أنظروا كيف يشبهه ! » ، وفى الحق أنى لاحظت فى هذا المسيخ مشابه منى . ثم استيقظت وهذه الفكرة عالقة بذهنى ، فقامت بنفسى رغبة ملحة فى أن ألقى الرجل لأرى هل فيه ملامح مشتركة بينه وبينى

لحقت به وهو ذاهب إلى الكنيسة ، فقد كان ذلك يوم أحد ، فنفحته مائة صلدى وجعلت أجسه بعينى وأتفرسه فى اضطراب وقلق ؛ فأخذ يضحك ضحكة قبيحة ، ثم ضاق ذرعه من طول ما صوبت النظر فيه وصعدته ، فانطلق مسرعاً بعد أن دمدم بكلمة لا يكاد يظهر لها جرس عبر بها عن شكره ولا شك

قضيت النهار كما قضيت الليل فى هم وقلق ؛ فلما اقترب المساء دعوت صاحب الفندق وقلت له فى حيطة ولباقة ولطف : إنى أهتم بهذا المخلوق البائس الذى أغفله كل إنسان ، وأعوزه كل شىء ، وأريد أن أفيده فائدة

ولكن الرجل أجابنى بلهجة المعترض المخالف قائلا :

« أوه ! لا تفكر فى ذلك يا سيدى . إنه أقل من لاشىء ، ولا يصلح لشىء ؛ وإنك لا تجنى مما تصنعه معه إلا الامتعاض والكراهة . أنا أستخدمه فى كنس الأصطبل وهذا كل ما يستطيع عمله ، وجزاؤه على ذلك أن أطعمه ، أما النوم فهو ينام مع الخيول ، وليس يلزمه بعد ذلك شىء . فإذا كان لديك سروال قديم فاخلعه عليه ، وستجده بعد ثمانية أيام خرقاً وهلاهيل » فلم ألحّ فيما اقترحت مبالغة فى الحيطة والحذر

عاد الصعلوك المسكين فى المساء يتخلج فى مشيته من السكر ويعربد ، فقد شرب حتى طفح . ثم كاد أن يشعل النار فى البيت ، وقتل حصانا بضربة فأس . وفى النهاية نام فى الوحل تحت المطر

الهاطل بفضل إحسانى وكرمى !

وفى الصباح جاء الفندق يرجو منى ألا أعطيه نقودا بعد ، فان الشراب يهيج فيه الشر ويذهب به كل مذهب . ولو وجد فى جيبه صلديين لما أنفقهما إلا فى الخمر . ثم قال الرجل : « إن إعطاءه النقود معناه القضاء عليه » . ولم يحصل فى يديه شئ منها قط إلا بضعة سنتيمات يرميها إليه بعض المسافرين فلا يعرف لها وجهة ولا غاية إلا الحانة !

قضيت فى غرفتى ساعات وفى يدى كتاب مفتوح أتظاهر بالقراءة فيه ، ولكننى كنت أديم النظر فى هذا الخشن الغليظ ابنى ! إبنى ! وأبذل الجهد فى أن أكتشف فى ملامحه وجوارحه بعض المشابه منى ، فكان من طول البحث وكثرة التقصى أن وجدت فيه وفىَّ خطوطا متشابهة على الجبهة وفى أصل الأنف ؛ فاقتنعت بأن هناك مشابهة يخفيها اختلاف اللباس وذوائب الرجل

لم أستطع أن أبقى طويلا مخافة أن ترجمنى الظنون وتطير من حولى الشُبه ، فرحلت والقلب مصدوع والفكر شارد ، بعد

أن تركت فى يد صاحب الفندق بعض المال ينفقه على خادمه البائس ليرفه عن نفسه ، ويخفف عنه عذاب مرضه وبؤسه

ومنذ ست سنين أعيش مع هذه الفكرة معذب النفس ، مفدوح الضمير ، لا أستقر على شك ، ولا أطمئن إلى يقين

وفى كل سنة تقودنى إلى (بون لابيه) قوة قاهرة

وفى كل سنة أحكم على نفسى بهذا العذاب الأليم فأرى هذا الشقى يرتطم في ردغة الاصطبل ، وأتخيل أن فيه مشابه منى ، وأحاول عبثاً تغيير حاله وإصلاح أمره

وفى كل سنة أرجع إلى هنا وأنا أشد مما كنت ارتياباً وعذابا وحيرة !

حاولت أن أثقفه فكان مظلم البصيرة لا يفقه ولا يدرك !

ثم حاولت أن أنفّس عنه بعض كُرَب العيش فكان سخيف العقل ينفق كل ما يُعطاه فى الخمر ، حتى إذا صفرت راحته باع فى سبيلها ثوبه

ثم حاولت ببذل المال أن أرقق عليه قلب سيده ليؤويه إلى

ظله ، ويرضخ (١) له من فضله ، حتى داخل الفندق العجب فقال يحجُّني بالرأى المعقول والمنطق المفحم : « كل ما تقدمه إليه يا سيدي لا يعود عليه إلا بالأذى والخسر . يجب أن يعتقل اعتقال الأسير ، لأنه متى ظفر ببعض الوقت أو ببعض المال انقلب شريراً لا يقام لسبيله . وإذا شئت عمل الخير فلن تعدم الوسيلة إليه . اذهب إلى ملجأ اللقطاء فاختر من بينهم طفلاً يساوى تعبك ويكافئ إحسانك »

ماذا تقول فى هذا ؟ إذا تركت هذا الرجل يصل بظنونه إلى الشبهة التى تلوع قلبي وتكدر حياتى انقلب خبيثاً ولا شك ، يستغلنى بالتهديد ، ويعرضنى للخطر ، ويلقينى إلى التهلكة . سيصيح بى : (بابا) فى اليقظة ، كما صاح بى الآخر : (بابا) فى الحلم

ثم قلت فى نفسى : لقد قتلت الأم وأضعت هذا المخلوق الهزيل الضارع ؛ تلك الدودة التى نشأت فى الاصطبل ودرجت فى الوحل ؛ ذلك الرجل الذى لو ربى تربية غيره ، لكان اليوم رجلاً مثل غيره

---

(١) رضخ له بالمال : أعطاه اليسير منه

إنك لا تستطيع يا صديقى أن تتصور الشعور الغريب المبهم الملحّ الذى يستولى علىّ وأنا أمام هذا الرجل أفكر فى أنه نسل منى ، وأنه وإياى مرتبطان بالوشائج الخاصة التى تربط الولد بأبيه ، وأنه بفضل قانون الوراثة الغريب هو (أنا) بدمه وبلحمه ويألف شئ آخر ، وأنه يشاركنى في كل خصيصة من خصائصى حتى فى جراثيم الأدواء ومناشئ الأهواء ومنازع الخلق

أنا أظمأ دائما إلى رؤيته ، ورؤيته تمزق أحشائى وتزيد همى ! فأنا أرعاه بنظرى من النافذة ساعات وساعات وهو يعمل فى أرواث البهائم فأردد فى نفسى هذا الهتاف : « هذا ولدى ! » ثم أشعر فى بعض الأحوال برغبة شديدة فى أن أعانقه ، ولكن يدى لم تمس يده القذرة الكريهة قط

* * *

ثم سكت رجل الأدب وعضو الأكاديمية ، وتكلم رجل السياسة وعضو الشيوخ قال : « نعم ! يجب علينا حقاً أن نُعنى أكثر مما عنينا بالأطفال الذين لا آباء لهم »

* * *

وهبَّت نفحة من الريح على شجرة الأبنوس الوريفة الصفراء فحركت عناقيدها ، ثم غلّفت الكهلين الصديقين بغمامة من ذَرورها العطرى الدقيق فاستنشقاه ملء رئتيهما أنفاساً طويلة

ثم ختم عضو الشيوخ المحترم الحديث بقوله :

« ما أجمل أن يكون الإنسان فى سن الخامسة والعشرين وإن ولد أولاداً كهذا ! »



في الربيع

حينما تقبل أوائل الأيام الجميلة فتستيقظ الأرض ، وتخضوضر الحقول ، وينبعث النسيم الفاتر العاطر فيتفتح الجسوم ويملأ الصدور حتى كأنما يخلص إلى الأفئدة ، تخالج أنفسَنا رغبات غير واضحة لسعادة غير محدودة ، فنتوق إلى الجريان ، ونصبو إلى الجولان ، ونسعى إلى المغامرة ، ونهفو إلى ارتشاف الربيع

وكان الشتاء فى عامنا المنصرم قارساً شديد الزمهرير ، فكانت الحاجة إلى التطلق والانبساط فى شهر مايو أشبه بالنشوة التى تغمر . وبالحميا التى تفيض

فى ذات صباح من أصباح الربيع تيقظت فإذا بى ألمح من النافذة بساط السماء الأزرق ممدوداً على سطوح المنازل المجاورة ، وقد اشتعلت الشمس فى سرته وحواشيه . وكانت العصافير الناشبة فى الشبابيك تغرد وتسرف فى التغريد ، والخادمات فى جميع طبقات البيت يغنين ويبالغن فى الترديد ، وضجة الحبور والمرح تصعد من الشارع إلىّ ، فخرجت والفكر جذلان مشرق أهيم فى المدينة لا أعرف لى وجهاً ولا غاية . وكانت بسمات

السرور تتألق فى وجوه المارين ، ونسمات السعادة تهتز فى أجواء الربيع ، وكأنما هبت على المدينة نفحة سارية من الحب ، فالفتيات اللاتى يمشين فى زينة الصباح فى عيونهن حنان مكتوم ، وفى مشيتهن رشاقة رخوة ، كن يبعثن فى قلبى اضطرابا ومشغلة

بلغت ضفة (السين) ولا أعرف كيف ، ولا أدرى لماذا ؛ فلما رأيت البواخر تجرى نحو (سيرينس) نازعتنى نفسى إلى ان أجوس خلال الغاب فركبت إحداها

وكان ظهر الباخرة (موش) مغطى بالمسافرين فما تجد موضعاً لقدم ، لأن أشعة الربيع الأولى لا تدع إنساناً قابعاً فى مسكنه . وكان كل راكب عليها قد استخفه النشاط فهو يذهب ويجيء ويضطرم فى نفسه ويتحدث إلى جاره . وكان جوارى لفتاة صغيرة لا شك أنها عاملة . هى باريسية الأناقة بارعة الظرف ، لها رأس لطيف التكوين أشقر اللون ، قد استوى شعره حِلقاً على الصدغين ، ثم تخدد وتجعد فصار كأنه ضوء متموج ، ثم انحدر إلى الأذن ، وسال على العنق ، ثم انتهى فى أسفل الجيد إلى زغب دقيق رقيق أصهب تكاد لا تراه ، ولكنك

تحس فى نفسك رغبة ملحة فى أن ترسل عليه عمراً من القبل

التفتت الفتاة إلى إجابة لإلحاح نظرى ؛ ثم كسرت طرفها فجأة ، ولاح على وجهها قطوب خفيف أشبه بالابتسام البادئ أخفى زاوية فمها بعض الخفاء ، ولكنه أظهر ثانية ذلك الزغب الناعم الشاحب الذى ذهّبته الشمس قليلا

كان النهر الهادئ ينفرج ما بين ضفتيه ، والجو الضاحك تنتشر فيه سكينة الدفء ، والفضاء المشرق تزخر به غمغمة الحياة . فرفعت جارتى بصرها ثانية إلى ، وفى هذه المرة كما بدا لى من مراقبتها كانت بسمتها صريحة قاطعة . وكانت فى هذا الوضع رائعة فاتنة حتى كشفت فى نظرها المختلس الهارب ألف شئ كانت مجهولة : كشفت فيه أغواراً لم تدرك . فيه كل ما نرغب من الحنان ، وكل ما نطلب من الشعر ، وكل ما نبغى من السعادة . فتملكتنى رغبة جنونية فى أن أفتح ذراعى فأحملها إلى مكان آخر ، ثم أهمس فى أذنها بشعر الهوى وموسيقى الغزل

ملت عليها وهممت أن أفتح فمى لأتكلم وإذا بيد تلمس كتفى ، فالتفت مبغوتاً فرأيت رجلا عادى الهيئة متوسط العمر

ينظر إلى فى حزن ويقول فى جد : « أريد أن أكلمك فى أمر » فبدت على وجهي جهومة لم تخف عليه لأنه قال : « إن الأمر جـد »

فنهضت من مجلسى حتى انتبذ بي مكاناً فى الطرف الآخر من السفينة ثم أنشأ يقول : حينما يدنو الشتاء يا سيدى بقره ومطره وثلجه يقول لك طبيبك كل يوم : « لا تهمل تدفئة قدميك ، واحذر البرد والزكام وذات الرئة وذات الجنب » فتحسب ألف حساب وتتخذ ألف حيطة : تكتسى القميص الصوف ، وترتدى المعطف الثقيل ، وتنتعل الحذاء الغليظ ؛ ثم لا يمنعك ذلك من أن تقضى شهرين فى السرير . ولكن حينما يعود الربيع بنضرة عوده ، وبهجة وروده ، ونسيمه الفاتر الذى يرخى المفاصل ، ونفَسه العاطر الذى يبلبل الصدر ، لا تجد من يقول لك : « حذار من الحب ياسيدي ! إنه يتعقبك فى كل مكان ، ويترصدك فى كل كمين . كل حيله منصوبة ، وكل أسلحته مشحوذة ، وكل غدراته مُهيأة ! حذار من الحب ! حذار من الحب ! إنه أشد خطراً من الزكام وذات الرئة وذات الجنب ! إنه لا يشفق ولا يرحم . ومن طبعه أن

يحمل ضحاياه على أن يأتوا من السخف والحمق ما لا علاج له ولا حيلة فيه » . أجل يا سيدى ! إن من رأيي أن تكتب الحكومة فى كل عام بالخط الغليظ على الجدران هذا الإعلان : « عاد الربيع ، فاحذروا أيها الفرنسيون الحب » كما يكتبون على أبواب المنازل المدهونة : « احذروا الدهان ! » وما دامت الحكومة لم تفعل فأنى أقوم مقامها فى ذلك وأقول لك : « أحذر الحب ، فأنه يهم أن ينشب فيك مخالبه . ومن واجبى أن أنبهك إليه كما ينبه الروسيون المار إذا قرص أنفه البرد فيبس »

لبثت دهشاً مبهوتاً أمام هذا الرجل الغريب . ثم اتخذت هيئة الوقار ، وتكلفت لهجة الجد ، وقلت له : أراك تدخل يا سيدى فيما لا يعنيك » فتحرك حركة عنيفة ثم قال : « أوه ! سيدى ! سيدى ! إذا رأيت إنساناً يشرف على الغرق فهل يجوز أن أدعه يغرق ؟ استمع قصتى فستعرف بعدها لماذا جرؤت أن أكلمك على هذا الوجه :

« كان ذلك فى مثل هذا الفصل من العام الماضى ،

ويجب أن تعلم يا سيدى أولا أنى موظف بوزارة البحرية ، ورؤساؤنا العسكريون يتخذون من شاراتهم وشرائطهم حجة على أن يعاملونا معاملة مهينة ! آه لو كان كل الرؤساء ملكيين ! ما علينا ! فلمحت من شباك مكتبى طرفاً أزرق صغيراً من حاشية الأفق يطير فيه السنونو ، فقام بنفسى أن أرقص فى وسط دفاترى وأضابيرى . واشتدت رغبتى فى الحرية حتى ذهبت على الكره منى إلى قردى أو رئيسى ، وهو رجل ضئيل الجسم نزق الطبع لا يتساير عن وجهه الغضب لحظة ، فقلت له : إنى مريض . فصاح فى وجهى وقال : أنا لا أصدق ذلك . إذهب عنى . أتظن أن العمل يمشى على أمثالك من الموظفين ؟ »

لم أذهب إلى المكتب كما أراد ، و إنما ذهبت إلى السين كما أردت؛ وكان جو ذلك اليوم كجو هذا اليوم ، فركبت الباخرة (موش) لأجول جولة فى ضاحية (سان كلو) . آه يا سيدى ما كان أحق رئيسي أن يحول بينى و بين الخروج ! لقد خيل إلى أن مشاعرى وجسمى مددتها حرارة الشمس ، فأنا أحب كل شئ : أحب الباخرة والنهر والشجر والمنازل والجيران وكل ما فى الطبيعة

من صامت وناطق . لقد كنت أتوق إلى أن أعانق أى شئ كائناً ما كان . ذلك هو الحب الذى كان يدبر حيله وينصب شراكه

وفى (التروكاديرو) على حين بغتة صعدت إلى الباخرة فتاة فى يدها صرة وجلست أمامى . لقد كانت فتانة المحاسن يا سيدى . ومن العجيب أن النساء يظهرن فى أيام الربيع أحسن وأجمل ، إذ تبدو عليهن الجهارة والفتنة وشيء خاص لا أدريه كأنه شرب النبيذ بعد أكل الجبن .

نظرت إليها ونظرت إلى ؛ وكان ذلك حيناً بعد حين كما فعلت صاحبتك . وأخيراً خيل إلى من طول ما أدمنا النظر أننا تعارفنا ، وأن ذلك التعارف يجيز لى أن أناقلها الحديث ، فكلمتها ، فأجابت على كلامى ؛ وكانت لطيفة الروح ، طلية الحديث ، فأطربتنى يا سيدى وأسكرتني

وفى (سان كلو) نزلتْ ونزلتُ ، وكان الذى معها عملا مطلوباً لبعض الناس فذهبت تسلمه . فلما رجعت كانت الباخرة قد رجعت . فأخذت أمشى بجانبها وعذوبة الهواء تنتزع منى

ومنها زفرات تتصعد ، فقلت لها : إن الجو فى الغابات يكون أروع وأمتع . فقالت . أى نعم ! فقلت لها : أتحبين أن نجول هناك جولة ؟ فنقدتنى خلسة بنظرها السريع كأنما كانت تقدر فى رأيها كم أساوى ، ثم نزلت على اقتراحى بعد تردد قليل

ها نحن ذان نسير جنبا إلى جنب وسط الأدواح والشجر ، ولا يزال تحت الأوراق بعض الجليد ، والعشب الطويل الكثيف ذو الخضرة اللامعة يغرق فى ضوء الشمس ، ويَشرق بملايين من الحشرات تتحاب وتتعاشق أيضا . وكانت الطيور تسجع فى كل مكان ؛ فأخذت صاحبتى تركض وتثب نشوى من صفاء الهواء ووضاءة الربيع ؛ وجعلت أنا كذلك أتبعها فأعدو كما تعدو وأطفر كما تطفر . والمرء يا سيدى يعود بهيماً خالصاً فى بعض أحيانه . ثم غنت وهى ثائرة المشاعر مستطارة اللب ألف أغنية : منها الرفيع ومنها الوضيع . وفى هذه اللحظة كانت هذه الأغانى وتلك فى مسمعى على حد سواء فى براعة الشعر وسمو اللحن . فانفعلت أشد الانفعال وكدت أبكى من فرط التأثر

أدركها التعب بعد قليل فقعدت على منحدر معشوشب ،

وقعدت أنا بجانبها وتناولت يديها الصغيرتين ، فحرك شفقتى عليها ما وجدت على أناملها من آثار وخز الإبرة ، فقلت : هذه هى العلامات المقدسة للعمل . فقالت : آه يا سيدى ! أتدرى ماذا تدل عليه العلامات المقدسة للعمل ؟ إنها تدل على المصنع الصاخب بلغو الزميلات ، والسمع الملوث بأفحش الهمسات ، والذهن المدنس بأقذر الحكايات ، والعفاف المثلوم ، والعرض المكلوم ، وفضول الأحاديث السخيفة ، وغثاثة الأفكار الضعيفة ، وشقاوة الحياة اليومية ، وعلى كل ما تتخلق به المرأة العاملة من ضيق الفكر ، وهُجر الحديث ، ووقاحة التبذل

ثم حدق كل منا فى عين صاحبه طويلاً . آه ! ما أقوى عين المرأة ! ولشد ما تفتن وتغزو وتملك وتسيطر ! ما أعمق هذه العين وأملأها بالوعود والأحلام والأسرار ! لقد قالوا : إن العين مرآة القلب . وما أبعد هذا القول عن الصدق يا سيدى ! فإن المرء لو اطلع من العين على دخيلة النفس لأبصر رشده وأقلع عن هواه ، فلا تصدق !

ثار ثائرى وجن جنونى ، فهممت أن أضمها إلى صدرى

فقالت : دع عنك هذا ولتسقط المخالب ! حينئذ جثوت على قدميها ، وفتحت قلبي بين يديها ، ثم أخذت أريق على ركبتيها كل ما كان يكظمنى من الحنان ويكربنى من الحب . فدهشت لاضطرابى وانقلابى ونظرت إلى عن عُرض وكأنما تقول فى نفسها : « آه ! هكذا ينبغى أن يكون العبث بك والهيمنة عليك يا صاحبى ، وسترى ! » الرجال فى الحب يا سيدى صرحاء سذج ، والنساء فيه تاجرات حواذق

لقد كنت وقتئذ أستطيع الاستيلاء عليها ما فى ذلك شك . ولقد أدركت هذا الخطأ بعد . ولكنني ما كنت أريد الجسد ولا أنشد اللذة . إنما كنت أبغى حنان المرأة المخلصة ، وجمال المثل الأعلى

فلما فرغت من بث نجواى وإعلان هواى نهضنا فعدنا إلى سان كلو ولم أفارقها إلا فى باريس . وكانت لدى عودتنا كاسفة البال ساهمة الوجه ، فسألتها عن سبب ذلك فقالت : هذا نهار من النهُر التى لا تشرق فى حياة المرء إلا قليلا » فخفق قلبي حتى كاد ينشق صدرى من شدة خفوقه

لقيتها فى الأحد التالى ، وفى الأحد الذى بعده ، وفى سائر أيام الآحاد ، فذهبت بها إلى بوجيفال ، وسان جرمان ، وميزون لافيت ، وبواسى . وغشينا كل مكان من أمكنة العاصمة يرتاده الحب ويتردد فيه الغزل . وكانت الماكرة لا تألو جهدا فى إذكاء هواى وإضرام شوقى ، حتي فقدت صوابى فلم تمض ثلاثة أشهر حتى تزوجتها

وهل يفعل غير ذلك يا سيدى موظف يعيش وحده من غير أسرة ولا مرشد ؟ لقد حدثته نفسه أن الحياة مع الزوجة ستكون سعيدة رغيدة . ولكن اسمع ماذا حدث :

« وجدتها لا تفتر طول النهار عن السباب والشتم . ثم هى لا تفهم قولا ولا تعرف علماً . ثرثرة فياضة تصم الآذان ، وغناء متصل يصدع الرأس . تشاجر الفحام واللحام ، وتقص على البوابة دخائل البيت ، وتفشى إلى خادمة الجيران أسرار الفراش ، وتفدح زوجها بالمطالب الباهظة ، وتدفع فى صدره بالحكايات السخيفة والاعتقادات الباطلة والآراء الفائلة والأحكام المسرفة ، حتى أكاد أبكى يا سيدى من القنوط والخيبة كلما تحدثت إليها »

ثم غلب الرجل الانفعال والوجد فصمت . وأدركنى على هذا المسكين الساذج رقة ، فأردت أن أجيب عن كلامه بشئ ، ولـكن الباخرة كانت قد وقفت على مرفأ فى سان كلو

نهضت الفتاة التى غزت فؤادى ومرت بجانبى وهى خارجة ، فألقت على نظرة عن عرض ، وبسمة عن دلال ، ثم نزلت . فهممت أن أثب وراءها ، ولـكن جارى أمسك بكمى ، فحاولت أن أتخلص منـه بحركة عنيفة فتشبث بطرف سترتى وجذبنى إلى الوراء وهو يقول بصوت لفت إلينا الراكبين : لن تذهب ! لن تذهب !

فتضاحك من حولنا الناس ولبثت فى مكانى جامداً محنق الصدر ، لا أجرؤ على شئ أمام الهزء والفضيحة ، حتى عادت الباخرة . وبقيت الفتاة على الرصيف تشيعنى بالنظر الحزين الخائب وصاحبى إلى جانبى يفرك يديه ويهمس فى أذنى قائلا :

« تالله ، لقد أسديت إليـك يداً لا ينقضى شكرها أبد الدهر ! »

الوصيّة

عرفت الفتى (رنيه دى برونيفال) شابا عظيم البسطة لطيف العشرة ، تغشى وجهه سحابة رقيقة من الحزن تكاد لا تنقشع . وهو شديد التشاؤم ، صريح التشكك ، لاذع النقد ، بارع السخرية من نفاق الناس ولؤم العالم . يقول وكثيراً ما يقول : « إن الناس ليس فيهم صالح . وإذا كان فيهم عفة فهى بالأضافة إلى ما فيهم من الدعارة » .

كان له أخوان من آل (كورسيل) لا يجمعه وإياهما ظل ، فكنت أظنه نسل من رجل آخر غير أبيهما ، نظراً لاختلاف اسمه عن اسميهما . وقد اضطربت الألسنة فى مناسبات كثيرة بأن حادثاً غريباً وقع فى هذه الأسرة ، ولكنها لم تفصل الخبر ولم تقص الحادث . وحبب إلىَّ هذا الشاب كرم شمائله فتوثقت بيننا أسباب الألفة ، واتصلت زيارات المودة

فى ذات مساء سألته عرضاً وأنا أتعشى على مائدته أنا وهو من غير ثالث : « أوُلدت على فراش أمك الأول أم على فراشها الثانى ؟ » فانتُسف وجهه قليلاً ثم تضرج [1] ، وبقى لحظة لا يتكلم

---

(١) انتسف لونه : امتقع . وتضرج : احمر

وقد بدت على محياه ريبة ظاهرة ؛ ثم ابتسم ابتسامته الساهمة العذبة وقال : « إذا كنت يا صديقى تنبسط لحديثى وتنشط لسماعه ، فسأقص عليك من نبأ مولدى ومحتدى ما تستغربه . وعهدى بك رجلاً ذكياً فلا أخشى أن يؤذى صداقتك هذا الحديث . وإذا تأثرت به وتألمت منه فلن أحرص بعد اليوم على أن يكون لى منك صديق

إن أمى — عقيلة كورسيل — كانت امرأة حديثة السن حيية الطبع خافضة الجناح ، خطب زوجها منها المال ، وتزوج منها الثروة ؛ فكانت حياتها معه حياة الشهيد المعذب . هذه الفتاة الودود الخرود (١) الرقيقة عاملها ذلك الفلاح الجلف الذى كان يجب أن يكون أبى ، معاملة جافية قاسية من غير هوادة ولا رحمة

لم يكد ينقضى شهر واحد على زواجهما حتى كان يعايش خادمة من الخدم . وكان يتخذ فضلاً عن تلك نساء مستأجرى مزرعته وبناتهم حظايا وخلائل . ولم يمنعه ذلك من أن يكون له من زوجته ولدان ، وقد كان الناس يعدونهم — وأنا فيهم — ثلاثة

(١) الخرود : الحيية

كانت أمى تعتصم بالسكوت وتلوذ بالصبر وتعيش فى هـذا البيت الصاخب اللاعب كما تعيش الفيران الصغيرة التى تسرق الخطى وراء الأثاث ، وتختلس الأنظار بين الفُرش

كانت تنظر إلى القوم وهى مزوية مخفية راجفة بعين ثاقبة قلقة كأنها عين الفزِع ، فلا تستقر فى محجرها ولا تطمئن . على أنها كانت رائعة الحسن ، بارعة الظرف ، شقراء الشعر ، في شقرتها لون من الشهبة ، ومعني من الحياء ، كأنما لوّحت شعرها مخاوفها المستمرة

وكان من بين الأصدقاء المختلفين إلى قصر السيد كورسيل ضابط قديم من ضباط الفرسان أرمل مرهوب الجانب ، رقيق القلب ، حاد الطبع ، إذا أزمع أمراً لم يثنه عنه شئ ؛ ذلك هو السيد برنيفال الذى أحمل اسمه . كان رجلاً مديد القامة ، مجدول الخلق ، خفيف البـدن ، أسود السبلتين ، غليظ الشارب ، يشبهنى كثيراً وأشبهه . يقرأ كما يقرأ الأدباء ، ولا يفـكر كما يفـكر أهل طبقته . كانت جدته العليا صديقة لجان جاك روسو ، فـكأنما ورث عنه شيئاً من طريق هذه العلاقة . حفظ كتابيه

(العقد الاجتماعى) و (هيلويز الجديدة) عن ظهر قلب ، ودرس سائر كتبه الفلسفية التى مهدت عن بُعد لهذا الانقلاب الذي حدث لعاداتنا الباطلة وآرائنا الفائلة وآدابنا السخيفة

أحب أمى وأحبته كما يظهر . وظلت هـذه العلاقة سراً مكتوماً لا يطير فى جنباتها ظن ، ولا تحوم حولها شبهة . ورأت هذه المرأة المسكينة الحزينة نفسها مفروكة(١) متروكة ، فتعلقت بأسباب هـذا الرجل تعلق اليائس ، واتخذت فى معاملتها طريقته فى التفكير ، ونظريته فى العاطفة الحرة ، وجرأته فى الحب المستقل ؛ ولـكنها كانت من الحياء والخفر بحيث لا تجرؤ على أن ترفع صوتها بالـكلام ، فظلت هذه الأهواء والآراء في قلبها المغلق مكظومة مركومة مركزة

وكان أخواى كأبيهما قاسيين عليها ، لا يلاطفانهـا ولا يحفلانها ؛ وقد تعودا أن يرياها فى البيت من سقط المتاع ، وأن يعاملاها معاملة الخدم

وقد كنت أنا الوحيد من بين أبنائها الذى بادلها حباً بحب وإخلاصاً باخلاص

---

(١) المفروكة : من يبغضها زوجها

ثم توفيت وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى . ولا بد أن أقول لك لتستطيع فهم ما يلى من الحديث : إن زوجها كان ممهوراً بحكم شرعى يجعل لها الحق فى استقلالها بادارة أموالها ، فكان لها بفضل حيلة القانون وذكاء الموثق ، أن توصى بما تشاء لمن تشاء

أبلغنا بعد وفاتها أنها تركت عند هذا الموثق وصية ، ثم دعينا إلى محضر فضها وقراءتها

لا أزال أذكر ذلك كأنه حدث أمس : كان منظراً عظيما أليما ، مبكياً مضحكا ، مفاجئاً مدهشاً ، أحدثه تمرد بعد الموت ، واحتجاج من جوف القبر ، وصوت الحرية اليائس ينبعث رهيباً من خلال الناووس المقفل ، يحمل شكوى هذه الفقيدة الشهيدة التى أشقتها أخلاق الناس وسحقتها تقاليد المجتمع

كان الرجل الذى يظن نفسه أبى دمويا لحيما كأنه جزار ؛ وكان أخواى فتيين قويين أحدهما في الثانية والعشرين والآخر يصغره بسنتين ؛ وكان ثلاثتهم ينتظرون مطمئنين على المقاعد . أما السيد برونيفال ، وقد دعى أيضاً إلى شهود هذه الجلسة ، فقد

دخل وأخذ مكانه خلفى ؛ وكان فى ردنجوته الضيقة شاحب اللون كاسف البال يعض شاربه الذى أخذ يشتهب ؛ فلا جرم أنه كان يتوقع ما سيحدث

أغلق الموثق البـاب بالقفل والرتاج وشرع يفض ختامنا الغلاف المختوم بالشمع الأحمر وهو يجهل ما يحتويه ، ثم أخذ يقرأ :

* * *

أمسك صديقى عن الـكلام فجأة ؛ ثم قام إلى درج فى مكتبه فأخرج منه قرطاساً قديماً فنشره ثم قبله طويلا ودفعه إلى وهو يقول : « هذه هى وصية أمى المحبوبة فاقرأ » فقرأتها فاذا فيها :

« أنا — آن كاترين جنفييف ما تيلدا دى كروا كسيلوس ، الزوجة الشرعية لجان ليوبولد يوسف جونتران دى كورسيل — أعلن وأنا صحيحة الجسم سليمة العقل إرادتى الأخيرة

« استغفر الله أولاً ، وولدى العزيز رنيه ثانياً ، من العمل الذى أريد أن آتيه . وفى اعتقادى أن ولدى من كبر النفس

وسمو العاطفة بحيث يفهم حقيقة أمرى ، ويقبل واضح عذرى . لقد قضيت حياتى بائسة معذبة . كان زواجى مسألة حسابية مالية ، فلا غرو أن تكون حياتى الزوجية سلسلة من الأنكار والاحتقار والضيم . يعنف علىّ زوجى من غير رحمة ، ويختاننى من غير هدنة ؛ فأنا أغتفر ما فرط منه إلى ، ولكننى لا أعترف بأن له ديناً على

« وولداى الكبيران لم يحبانى ولم يدللانى قط . كانا قليلا ما يعاملاننى معاملة الولد للأم

لقد كنت لهما ما ينبغى أن أكون فى حياتى ، فلست مدينة لهما بشىء بعد مماتى

« إن علائق الدم لا تتوثق بغير المودة الدائمة الملازمة فى كل يوم ، وأما الولد العقوق فهو أبعد من الغريب . وهو مجرم لأن الولد لا ينبغى له أن يستخف بأمه

« لقد كنت أمام الناس أضطرب خجلا وأتفزع وجلا من قوانينهم الباغية وعاداتهم الجافية وأحكامهم المعيبة ، ولكننى

أمام الله لا أخشي شيئاً ولا أرهب أحدا ؛ فأنا بعد أن مت أطرح عن نفسى هذا الخجل المنافق وأجرؤ على أن أصحر بفكرى وأجهر بسرى

« إذن أوصى بمانى الذى جعل لى القانون حق التصرف به لعاشق المحبوب (بيير جرميه سيمون دى برونيفل) ليؤول من بعده إلى ولدى وولده رنيه

وإنى بين يدي الله رب العالمين وأحكم الحاكمين أعلن أنى كنت ألعن السماء وأرجم الأرض لو لم يتح لى هـذا الحبيب الصادق المخلص ، فأذوق من شفتيه الود المصفَّـق والحب الموثَّق والحنان العطوف ؛ وأفهم بين ذراعيه أن الله خلق الناس ليجتمعوا على الحب ، ويأتلفوا على الصفاء ، ويتعاونوا على الشدة ، وينضح بعضهم حسرات بعض بالعزاء والدمع

« إن ولدى الـكبيرين أبوهما السيد دى كورسيل ، وأما ولدى رنيه فأبوه السيد دى برونيفال . وإنى أسأل الله رب البشر ومصرف القدر أن يضع الوالد والولد فوق ظنون الناس وأوهام المجتمع ، وأن يؤلف قلبيهما على الحب مدى الحيـاة ، وأن

يعطفهما على وأنا فى القبر »

(ما تيلد دى كروا كسيلوس)

فلما فرغ الموثق من قراءة الوصية نهض السيد دى كورسيل وصاح : « هذه ولا ريب وصية امرأة مجنونة ! » فتقدم السيد دى برونيفال وقال بصوت قوى حاسم :

« أنا — سيمون دى برونيفال — أعلن أن هذه الوصية ليس فيها إلا الحق المبين والصدق المحض ، وأنا مستعد أن أثبت ما فيها بما تحت يدى من الرسائل »

حينئذ مشى السيد دى كورسيل الزوج إلى السيد دى برونيفال الحبيب ، فما شككت فى أنهما سيتقاتلان . وقف أحدهما للآخر ؛ هذا ربيل (١) وذلك هزيل ، وكلاهما وافى الشطاط يتهور بالكلام ويتسعر بالغضب . قال زوج أمى لحبيبها وهو يتزغم ويزمجر :

« يالك من شقى شرير ! »

فرد عليه الآخر بلهجته وغلظته : « سنتلاقى فى غير هذا المكان يا سيدى . ولقد كنت أود قبل اليوم أن ألطمك وأتحداك ، لولا أنني آثرت سلام هذه المرأة التى أشقيتها بخيانتك ،

(١) الربيل : السمين

وعذبتها بقساوتك »

ثم التفت إلى وقال : « إنك ولدى ، فهل تريد أن تتبعنى ؟ إننى لا أملك الحق الذى يساعدنى على أخذك ، ولكنى أملكه إذا شئت فجئت معى » فصافحته من غير أن أجيب ؛ ثم خرجنا معاً وأنا أسوأ حالاً من المجنون

وبعد يومين قتل أبى زوج أمى فى مبارزة ؛ فلزم أخواى الصمت اتقاء لعار الفضيحة وسوء السمعة ؛ ونزلت لهما عن نصف ما تركته أمى فقبلاه . وتسميت باسم أبى الحقيقى ، ورميت للقانون ذلك الاسم الذى نحلنى إياه وليس لى به صلة . ومنذ خمس سنين توفى السيد دى برونيفال فحزنت عليه حزناً شديداً حتى لم أملك العزاء عن فقده إلى اليوم

* * *

قال ذلك صديقى الشاب ثم نهض فخطا إلى حتى وقف بين يدى وقال : « هيه ! أليس من رأيك أن وصية أمى هى أجمل وأنبل ما تستطيع امرأة أن تعمله ؟ » فبسطت إليه يدىَّ الاثنتين وأجبته : « بلى يا صديقى ! ذلك شئ لا ريب فيه »

الحامي

لم يكن جان مارين يقدر فى حلمه ولا فى وهمه أنه سيكون يوماً على هذه الثروة وفى هذه المنزلة وهو ابن محضر من محضرى الأقاليم أرسله أبوه إلى الحى اللاتينى يدرس الحقوق كما يدرسها كثير مثله . فكان لا ينفك مترددا على مشارب البيرة يغشاها واحداً بعد واحد ، حتى اتصلت أسبابه بطائفة من الطلبة الرغائين الذين يستفرغون أحاديث السياسة وهم يتعاطون أكواب البيرة . واشتد إعجابه بتخليطهم وولوعه بخلاطهم ، فطلبهم فى كل مجلس ، وتبعهم إلى كل قهوة ، حتى كان يؤدى عنهم ثمن ما يشربون إذا كان فى كيسه فضل(١) . ثم عالج المحاماة فلم يفز فى قضية من القضايا التى دافع عنها.

وفى ذات صباح قرأ فى إحدى الصحف أن رفيقاً من رفاق الحى اللاتينى انتخب عضواً فى مجلس النواب ، فأصبح له الظلّ الملازَم والكلبَ الأمين ، يؤدى كل سخرة ، ويلبي كل طلب ، ويبتذل نفسه للنائب فى كل ما جل وقل من غير كلفة ولا حرج

(١) الفضل : الزيادة

ثم اتفق فى إحدى المغامرات البرلمانية أن صار هذا النائب وزيراً ، فلم تمض ستة أشهر على ذلك حتى عين جان مارين مستشاراً فى مجلس الدولة

* * *

أصابَ الرجل أول ما أصابه فكةٌ (١) من الصلف والكبر طاش بها لبه وغاب فيها صوابه ، فكان يجوب الشوارع ولذته أن يظهر للناس ، كأنهم يستطيعون أن يعرفوا المنصب الذى صار إليه ، بمجرد أن تقع أبصارهم عليه . وكان يتصيد المناسبات ويترصد الفرص ليقول لصاحب الحانوت وبائع الصحف وسائق المركبة :

أنا — ومنصبى مستشار فى مجلس الدولة — ...

ثم شعر بعد ذلك بالحاجة الملحة إلى أن يحمى غيره ، كأنما اقتضاه ذلك الشعورَ كرامةُ المنصب ، وضرورة المهنة ، وواجب القادر الكريم . فقدم سنده وعونه إلى كل امرئ فى كل أمر ، و بسط عنانه فى ذلك حتى عفا (٢) على حاجة المحتاج وسؤال السائل . كان إذا لمح فى الشارع وجهاً يعرفه دلف إليه فى لهفة وهشاشة ؛

(١) الفكة : حمق فى استرخاء (٢) عفا : زاد

ثم تناول يديه وسأله عن صحته وحاله ، وقال له قبل أن يسمع الجواب عن سؤاله :

تعرف أنى مستشار الدولة ، وستجدنى إن شاء الله عند حاجتك . فعول على بما شئت فى غير ضيق ولا تحرج . والمرء فى مثل منصبي طويل الباع عريض المقدرة

ثم يميل بكل من يقابله هذه المقابلة ، ويسائله هذه المساءلة ، إلى القهوة القريبة ، فيطلب قلما ودواة وورقاً من أوراق الرسائل ؛ « ورقة واحدة ، يا غلام ، فأنى أريد أن أكتب كتاب توصيـة »

كان يكتب فى اليوم الواحد من عشرة كتب إلى خمسين كتاباً فى التوصية ، فلم يدع قهوة فى العاصمة إلا كتب فيها ، ولا موظفاً فى الحكومة إلا كتب إليه ، وكان بذلك رخى الصدر موفور السعادة

* * *

وفى صباح يوم من الأيام كان فى طريقه إلى مجلس الدولة

فأمطرت السماء ، فراودته نفسه أن يركب مركبة ولكنه لم يفعل . وآثر أن يبلغ مكتبه على قدميه . ولكن الغيث انسكب مدراراً فشرقت به الطرق وغرقت فيه الأفاريز ، فاضطر السيد مارين أن يلوذ منه بأحد الأبواب ؛ وكان قد لجأ إليه قبله قسيس شاع المشيب فى رأسه ولحيته . والسيد مارين كان يكره رجال الأكليروس ، فلما صار مستشاراً أصبح يحبهم ، لأن أحد الكرادلة جاء فى أدب واحترام فاستفتاه فى مسألة عويصة !

كان المطر لا يزال ينهمر غزيراً ، فدفع بالرجلين إلى مأوى البواب يتقيان به البلل ، وكان فى طبع السيد ماربن حافز يشبه الحكَّة يغريه دائماً بالكلام ليرفع من شأنه ويدل على نفسه ، فقال :

— هذا يوم فظيع يا سيدى القس

فانحنى القسيس الشيخ وقال :

— نعم يا سيدى ، وهو أفظع على من يقدم إلى باريس يقضى فيها بضعة أيام

— آه ! أنت من الأقاليم ؟

— نعم يا سيدى وما أنا في باريس غير عابر . . .

— لا جرم أن هذا الوابل المتون يثقل على نفس العابر الذى يريد أن يقضي فى العاصمة بضعة أيام ؛ أما نحن معشر الموظفين الذين لا يبرحونها طول العام فلا نكاد نعبأ به ولا نفكر فيه

لم يجب القسيس وإنما أخذ ينظر إلى الشارع وقد خف هطول المطر ، ثم شرع فجأة يشمر مسوحه عن ساقيه يريد أن يعبر الطريق كما يفعل النساء حين يردن عبور الجدول . فلما رآه السيد مارين يريد الانطلاق صاح به :

ستبل نفسك يا سيدى القس ، فتمهل قليلا فقد أوشكت السماء أن تقلع (١)

فوقف الشيخ المتردد وهو يقول :

— أنا يا سيدى على حد عجلة ؛ وإن عندى موعداً لا سبيل عنه ولا وقت له

فتبين فى وجه السيد مارين الكدر ، وقال للقسيس : إنك ستعبر الطريق لا محالة . ولكن ، هل أستطيع أن أسألك إلى

(١) أقلعت السماء : كفت عن المطر

أى الأحياء تريد أن تذهب ؟ فتردد الخورى ثم قال :

— إنى ذاهب إلى جهة (الباليه رويال)

— إذن أستطيع ، إذا سمحت يا سيدى ، أن أقيك البلل بمطريتى (١) ، فأنى ذاهب إلى مجلس الدولة وأنا مستشار فيه

فرفع الشيخ القسيس إليه أنفه وجلى فيه بصره ، ثم قال : قبلت يا سيدى ، وأشكرك جزيل الشكر

حيئئذ أخذ بذراعه ومشى يجره ويسدده ويرشده وينصحه :

« خذ حذرك يا سيدى القس من هذا المسيل . اتق على الأخص عجلات المركبات . إنها ترشك أحياناً من قدمك إلى رأسك . اجعل بالك لمطريات المارين فلا شيء أخطر على العين من أطراف حديدها ؛ والنساء على الأخص أشق على السائرين في ذلك ، فإنهن لا يحفلن بشيء ولا يلتفتن إلى أحد ، وقد يغرسن فى حر وجهك أطراف مظلاتهن أو مطرياتهن . وهن يمشين لا يبالين كأنهن يملكن المدينة ، فهن يحكمن على الأفريز وفى الشارع . وفى رأيى أن تربيتهن مهملة أو مغفلة

ثم جعل المستشار الناصح يضحك والخورى الشيخ صامته

(١) المطرية : ما يقيك المطر para pluie

لا يجيب ؛ إنما كان يسير محنى القامة يتحسس فى عناية وحذر موضع خطوه حتى لا يلوث نعله ولا ثوبه

استأنف السيد مارين الحديث قال :

إنك قدمت إلى باريس لتلهو فيها قليلا ولا شك . فقال له القسيس فى سذاجة :

كلا ، إنما قدمت فى عمل

— آه ! وهل هو عمل مهم ؟ وهل لى أن أسألك عن موضوعه ؟ إذا رأيت أنى أنفعك بنافعة فأنى طوع أمرك

بدا على الخوري الارتباك ونم حاله عن القلق فقال مغمغما :

أوه ! إنها مسألة صغيرة شخصية ؛ هى مشكلة تافهة مع ... مع مطرانى ، إنها لا تعنيك ... مسألة داخلية من ... من ... نوعٍ اكليروسى

فبادر السيد مارين بقوله : ولكن مجلس الدولة هو الذى يقضى فى مثل هذه الأمور . فاعتمد على فى شأنك . فقال القسيس :

نعم ياسيدى وأنا ذاهب إلى المجلس . إنك طيب القلب جم

المروءة . إن مسألتي بين أيدى السادة لوربير ، وسافون ، وبتيبا

فقال السيد مارين فى اهتمام ولهفة :

— ولكنهم يا سيدى القس من صفوة أصدقائى ومن خيرة زملائى . وكلهم ظريف الطبع عذب الخلق . فاحمل على من من أمرك ما تحب . وسأكتب إلى ثلاثتهم كتب التوصية بك لا آلوهم فيها تأكيداً ولا شفاعة . فأقبل القسيس يشكر ويعتذر ويتضرع والسيد مارين يقول له فى غبطة وزهو :

إن من حقك أن تفخر بمثل هذا الحظ الناهض يا سيدى القس . وسترى أن قضيتك بفضلى ستسير من غير حائل ولا شاغل

فلما بلغا دار المجلس صعد السيد مارين إلى مكتبه وقدم إليه كرسياً أمام المدفأة وجلس هو على مكتبه وطفق يكتب :

« زميلى العزيز ! ... اسمح لى أن أوصيك خيراً برجل فاضل من رجال الدين ومن أوفرهم كرامة وأكثرهم جدارة وهو القسيس ... » ثم قطع الكتابة وسأل :

— إسمك من فضلك ؟

— القسيس سانتور

فعاد السيد مارين يكتب :

« القسيس سانتور ، وهو فى حاجة إلى جميل عطفك ونبيل عونك فى مسألة صغيرة سيحدثك عنها : أنا سعيد بهذه الفرصة التى سمحت لى يا زميلى العزيز أن . . .

ثم ختم الكتاب بالتحية المعروفة . . .

ولما حرر ثلاثة الكتب وطواها ألقاها إلى صنيعته ومحميه فأخذها ومضى وهو يلهج بالثناء ويلهث بالشكر

* * *

أتم السيد مارين عمله ، ثم انقلب إلى بيته ، فقضى نهاره رخى البال ، ونام ليله قرير الجفن ، ثم استيقظ صباحه منشرح الصدر ، فدعا بصحف الصباح فكان أول ما وقع فى يده صحيفة انقلابية (راديكالية) وكان أول ما قرأ فيها هذا الخبر :

(أكليروسنا وموظفونا)

لا تكاد سيئات الأكليروس تنفد على الاحصاء : هذا

قسيس يدعى سانتور قد ثبت عليه بالدليل القاطع أنه ائتمر بالحكومة القائمة ، وأنه اقترف طائفة من المنكرات نصون القلم عن ذكرها . وقد اتهم فضلا عن ذلك بأنه يسوعى قديم تقمص ثوب قسيس ناشئ ، ثم عزله مطرانه لأسباب يؤكد الراوون أنها مخزية . وقد استدعى إلى باريس ليحاسَب على هذا السلوك ، فاهتدى إلى مدافع وارى الزناد حديد الفؤاد فى مستشار يدعى مارين لم يتحرج فى أن يوصى بهذا الشرير الفاسق جميع الموظفين الجمهوريين من زملائه . نسجل هذا الخبر المريب ، ليرى معالى الوزير رأيه فى موقف هذا المستشار الغريب ... »

لم يكد السيد مارين يأتى على آخر هذا الخبر الصاعق حتى وثب وارتدى ثيابه وذهب يعدو مهطعاً إلى زميله (بتيبا) فلما رآه الزميل صاح به :

— ويحك ! أبلغ بك الجنون أن توصى بهذا المؤتمِر العجوز ؟

فأجابه مارين وهو من الجزع لا يملك قلبه ولا يجد لسانه :

— حاشا ! حاشا ! رويدك ! لقد خُدعت ! تظاهر هذا

الخبيث بالورع والنبل حتى خدعنى . . خدعنى بنذالة ؛ فأرجو أن تحكم عليه بصرامة . لا تأخذك به رأفة . . . أما أنا فسأكتب ، .. قل لى إلى من ينبغى أن أكتب لأسأله أن يحكم عليه ؟ أنا ذاهب إلى النائب العمومى ... ثم إلى رئيس الأساقفة .. نعم إلى رئيس الأساقفة ...

ثم جلس فجأة إلى مكتب السيد بتيبا وأخذ يكتب :

مولاى . أتشرف بأن أرفع إلى عظمتكم أنى وقعت ضحية لدسائس وأكاذيب نسجها قسيس يدعى سنتور ثم فاجأ بها سلامة نيتى . وما زال يدور من وراء خديعتى حتى حملنى على أن أكتب . . . .

ولما أمضى الكتاب وغلفه التفت إلى زميله وقال له :

أرأيت يا عزيزى ؟ عساك أن تتخذ مما حدث لى درساً وعبرة . إياك أن تكتب كتاب توصية بأحد ! أسمعت ؟

الحزب الملعون

— ١ —

كان للسيد (تاى) ثلاث بنات : أنّا ، وهى البكر ولم يعد لها ذكر فى الأسرة ؛ وروز ، وهى طريدتها فى العمر ولم تتجاوز الثامنة عشرة ؛ ثم كلير ، وهى الصغرى ولا تزال غضة الحداثة فى ربيعها الخامس عشر . وقد أشبل (١) الأب عليهن بعد وفاة أمهن فلم يتزوج

كان السيد تاى مدير الآلات فى مصنع من مصانع الأزرار ؛ وهو رجل شهم الفؤاد ، مرعى الجانب ، رضي الخلق ، عزوف النفس ، مثال للعامل الصالح ، وقد اتخذ مسكنه فى شارع (انجلولم) بمدينة الهافر

ولما هتكت ابنته أنّا رداء الحشمة ، وأطلقت لنفسها عنان هواها ، أخذه المقيم المقعد ، وتوعد المغوى الأثيم بالقتل . والمغوى غلام غرير يرأس قسما من الأقسام فى متجر كبير من متاجر المدينة . ثم وقع فى سمعه من بعض الأفواه أن ابنته

(١) أشبل الأب على أولاده : قام عليهم بعد وفاة زوجه ولم يتزوج

استقامت على الطريق الأمثل ، وأحسنت القيام على ما جمعت من المال ، واطمأنت إلى العيش الطليق فى ظلال السيد دبوا ، وهو قاض فانى الشباب عالى السن من قضاة المحكمة التجارية ؛ فقرت فورة الوالد وسكت عنه الغضب ، ثم بلغ به الرضا أن اعتراه القلق على ما صنعت بابنته الأحداث ، فأقبل يسأل عن بيتها أخلاءها القدماء الذين لا بسوها . فلما أكدوا له أنها تتبسط على النعيم بين الأثاث والرياش ، وأن لديها كومة من الأوانى الملونة منضودة على رءوس المدافئ ، ونخبة من المناظر الجميلة مرسومة على وجوه الحوائط ، فضلا عن الساعات المذهبة المعلقة فى كل مجلس ، والطنافس الفاخرة المبسوطة فى كل ممشى ، جرت على شفتيه بسمة خفيفة ، لأنه منذ ثلاثين عاماً يكدح فلم يجمع غير خمسة آلاف فرنك حقيرة ؛ فالبنية على كل حال ليست غبية !

وفي ذات صباح جاء فيليب بن توشار صاحب مصنع البراميل يخطب إليه إبنته الثانية روز ، فدق فؤاد الأب دقات الفرح ، لأن آل توشار من ذوى الثراء والمكانة ، فهو قطعاً سعيد الجد فى بنائه . ضرب الأب موعداً ليوم العرس ، وعقد النية على

أن يجعل الاحتفال به فخما ، واختار أن يقام بسانت إدريس فى مطعم الأم (جوزا) . ذلك يقتضى زيادة الكلفة والنفقة ، ولكن لا بأس ! إن المرة الواحدة لا تصير عادة !

وبينما كان الشيخ وابنتاه يتهيأون ذات يوم للغداء ، فتح الباب فجأة ودخلت أنّا عليها أفخر الحلل ، وفى أصابعها أنفس الخواتم ، وعلى رأسها قبعة مُراشة . وكانت فى هذه الزينة عذبة الروح خفيفة الظل ، فوقعت على صدر أبيها وأخذت بعنقه فلم تدع له وقتاً ليقول : (أف !) ، ثم ألقت بنفسها فى أحضان أختيها ، ثم غيضت دمعها ومسحت ما سال منه وجلست إلى المائدة وطلبت طبقاً لتشرب الحساء مع الأسرة . وفى هذه المرة تحنن الأب (تاى) وتعطف ، حتى باكى ابنته رقة ورحمة ؛ ثم قال مرة بعد مرة : « حسن يا ابنتى ! هذا حسن ! » وحينئذ أخذت أنّا تذكر ما جاءت لأجله : ذكرت أنها لا تريد أن يقام عرس روز فى سنت إدريس ، وإنما تريد أن يقام عندها وتتحمل هى أكلاف الزفاف فلا تكلف أباها شيئاً . لقد أمضيت النية على هذا الأمر وجُمعت الأهبة لكل شئ ،

وقدمت النفقة عن كل عمل . فقال الأب مرة بعد مرة : « حسن يا ابنتى ! هذا حسن ! » ولكن شيئاً من الشك تخالج فى صدره فقال : ليت شعرى أيقبل آل توشار هذا الاقتراح ؟ فأجابت روز وقد بغتها هذا السؤال : ولم لا يقبلون ؟ أترك لى لأمر ، وسأذهب إلى فيليب فأكلمه فيه . وفى اليوم نفسه ذهبت روز إلى خاطبها فيليب وحدثته فى اقتراح أنّا فارتاح له ، وعرضه على أبويه فافتر فى وجهيهما السرور طمعا فى غداء هنئ مرئ لا يتكلفان له كلفة . ثم قالا : « لا ريب أن الحفل سيكون هناك أفخم ، فأن السيد دبوا يتقلب فى الرخاء ويتمرغ على الذهب » ثم استأذنا فى أن يدعوا صديقتهما الآنسة فلورنس طاهية الأسرة التي تسكن الطبقة العليا من المنزل ، فأذنت لهما أنَّا راضية مغتبطة . وجعلوا أجل الزواج يوم الثلاثاء الأخير من هذا الشهر

— ٢ —

أخذ موكب الزفاف سَمته بعد المواضعات المدنية فى دار العمدة

والطقوس الدينية فى الكنيسة ، إلى دار أنّا . وكان آل تاى قد دعوا من أصدقائهم العمة لاموندوا ، والعم سوفتنين وهو شيخ متفلسف متكلف يهتم بالقيود ويحتفل للنظام . وقد انتخبوه مراقصا لأنّا ، وإنما قرنوا أحدهما بالآخر لأنهما أبرز من بالحفل شخصية وأرفع مكانة . ولما بلغ الركب منزل (أنّا) تركت قرينها وتقدمت الموكب قائلة : « سأهديكم الطريق » ثم صعدت السلم عجلى وتركت موكب المدعوين ينقل خطاه فى وِناء وبطء ؛ ثم فتحت الفتاة الباب وأفسحت الطريق للمدعوين فدخلوا مشدوهين مأخوذين تجول عيونهم فى الأثاث الفخم ، وتدور رءوسهم فى البيت الأنيق . وكانت قاعة الطعام لا تتسع للمدعوين فمدت المائدة فى البهو ونظمت فوقها أداة الطعام وآنيته ، وصفت عليها دوارق الصهباء فوقع عليها من الشباك ضوء من الشمس لألأ نضارها وشعشع سناها

دخل النساء غرفة النوم يخلعن ما عليهن من قبعات وشيلان ، ووقف الأب توشار على العتبة يختلس النظر الخبيث إلى السرير الواطئ العريض ، ويشير إلى الرجال بيديه إشارات المجون

والدعابة . وسار الأب (تاى) الوقور وقبعته فى يده ينتقل من غرفة إلى أخرى وهو ينظر إلى أثاث ابنتـه الفخم نظر المزهو الفخور ، ويلحظ قطع الرياش لحظ الفاحص المقدر وهو يمشى مشية قيم الـكنيسة فى أبهاء الـكنيسة ، وكانت (أنَّا) لا تفتأ ذاهبة آيبة ترعى النظام وتستعجل الطعام وتوفر الجمال للمأدبة

وأخيراً وقفت على عتبة غرفة الطعام العاطلة من أثاثها وصاحت فى القوم : « تعالوا هنا بأجمعكم لحظة ! » فسارع إليها الإثنا عشر مدعوا فوجدوا اثنى عشر كوباً من خمر (مادير) مصفوفة على صورة الإكليل فوق منضدة عالية ، وأخذ كل من العروسين بخصر الآخر ووقفا فى أحد الأركان يتبادلان القبل ؛ وظل السيد سوفنتين يتعهد (أنَّا) بالنظر مسوقا بتلك الرغبة وذلك الرجاء اللذين يحركان الرجال ، الشيوخ والمسوخ إلى النساء الحسان حتى كأنما يفرض على الأناث واجب الحرفة والتزام الصنعة أن ينزلن عن شىء منهن للذكور

أعدت المائدة وجلس إليها القوم : أهل الزوجين فى طرف ، وبقية الناس فى طرف . وتصدرت فى اليمين الحماة ، وتصدرت

فى الشمال العروس . وأخذت (أنا) تجعل بالها إلى المدعوين أجمعين فلا تدع كأساً تفرغ ولا طبقاً ينقص . ولكن رهبة الاحترام ووازع الاحتشام اللذين بعثهما فى النفوس نخامة المسكن وأبهة الخدمة ، ألجما الأفواه وشلا الجوارح . إنهم يأكلون أشد الأكل ، ويطعمون أجود الطعام ، ولكنهم لا يمرحون ولا يمزحون كما يفعل الناس عادة فى ولائم الأعراس . كانوا يشعرون بأنهم فى جو تشيع فيه مهابة الجلالة ، فبرمت الأم توشار بتلك الحال ، فهى بطبعها دعّابة تحب المزاح وتطلب الضحك ؛ وأرادت أن تسرّى ذلك الانقباض عن القوم ، وكانوا قد أتوا على ألوان الطعام ووقفوا على الحلوى ، فطلبت إلى ابنها فيليب العريس أن يغني المدعوين أغنية ، وكان قد ذهب سمعه فى الحى أن صوته أرخم صوت فى مدينة الهافر . فلبى العريس طلب أمه ، ونهض باسماً والتفت إلى (أنا) على سبيل الأدب والتظرف ، وبحث عن أغنية من الأغانى التى تناسب مقتضي الحال وتوائم جلال المأدبة . واتخذت (أنا) هيئة المسرورة وتطرحت إلى الوراء على كرسيها لتسمع . وبدا على الوجوه المصغية افترار من

السرور المبهم . وأعلن الفتى المغنى أنه سيغنى (الخبز الملعون) ثم دور ذراعه اليمنى على صورة قرص وأخذ ينشد :

إن الخبز المبارك هو ما تصنعه الأرض ؛

ولا بد أن نقتلعه بسواعدنا الفتية !

ذلك هو خبز العمل الذى يقدمه الرجل

الصالح فى المساء إلى بنيه وهو جذلان مغتبط .

ولكن هناك خبزاً آخر يفتن النفوس ويغوى :

ذلك هو الخبز الملعون الذي زرعته لهلا كنا جهنم .

أيها الأطفال لا تلمسوه ! إنه خبز العار والخطيئة .

أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك

الخبز الملعون !

* * *

انفجر المدعوون بالتصفيق وأطالوه فى حدة وشدة . وقال الأب توشار : « ذلك شئ فى محله » . وأدارت الطاهية المدعوة فى يدها قطعة من الخبز ونظرت إليها فى حنان وإشفاق . وقال

السيد سوفتنين مغمغماً : « حسن جداً » . ومسحت العمة لاموندوا عينيها بفوطتهـا . وأعلن العريس أنه سيغنى المقطوعة الثانية ، وانطلق ينشدها بقوة وحمية :

احترموا ذلك البائس الذى حطمته السنّ العالية
فجاء يستندى الأكف على قارعة الطريق .
ولـكن احتقروا ذلك المتبطل الذى يترك العمل
وهو صحيح البدن جم النشاط ثم يمد يده للسؤال .
إن الاستجداء مع القدرة سرقة من المنتج
الذى أوهن عظمه الـكبر ،
وسرقة من العامل الذى قوس ظهره العمل .
خزى لمن يعيش على خبز الخمول والـكسل !
أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك
الخبز الملعون !

* * *

نهض القوم أجمعون واقفين حتى الخادمتان ، وأخذوا يرفعون

عقائرهم بالبيت الأخير . وكانت أصوات النساء الناشزة الحادة تقطع أصوات الرجال الرزينة الممتلئة . وكانت العمة والعروس تبكيان أحر بكاء ؛ والأب تاى يمخط فى صوت كصوت البوق المزدوج ، والأب توشار يردد جازعاً بين يديه قرصاً من الخبز ؛ والطاهية الصديقة ترسل عبراتها الصامتة على قطعة الخبز التى لا تزال تكابد فى يدها العذاب ؛ وقال السيد سوفتنين فى وسط هذا الجزع العام : « ذلك هو الكلام الحر والمغزى الصحيح ، لا ما كنتم تريدونه من المجون والدعابة » كذلك أدرك التأثر (أنا) فأرسلت قبلاتها إلى أختها ، وأشارت إلى زوجها إشارة الاعجاب والمودة ، تريد بذلك أن تهنئها به . ومادت بالفتى نشوة النجاح فأخذ يغنى المقطوعة الأخيرة فى حماسة وطرب :

أيتها العاملة الحسناء ! كأنى بك تصيخين وأنت
فى مأواك المتواضع إلى صوت الخادع المغوى !
اذهبى لشأنك يا مسكينة ! اتركيه ولا تتركى الإبرة .
إن أهلك هم أنت ؛ فسعادتهم فيك وبك .
هل تجدين فى الترف المخزى والبذخ الأثيم جمالاً

ولذة حين يرسل إليك أبوك فى نفَسه الأخير
لعنته ودعوته ؟
إن خبز الخطيئة والحزى معجون بالدموع !
أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك الخبز الملعون !

* * *

لم يردد البيت الأخير إلا الخادمتان والأب توشار . أما (أنا) فقد كسر طرفها الغم ، ولف رأسها الخجل . وأما الزوج المغنى فقد ملكه الدهش وظل ينظر حواليه نظر الذاهل يحاول أن يعلم السبب فى هذا الفتور المفاجئ . وألقت الطاهية قطعة الخبز من يدها كأنها مسمومة . وحاول السيد سوفتنين أن ينقذ الموقف فقال : إن المقطع الأخير شديد مفرط فى الشدة . وطغى الدم فى وجه الأب تاى فاحمر حتى أذنيه ، وتسعر الغضب فى عينيه . وصاحت (أنا) فى خدمها بصوت يهدجه البكاء ويبلله الدمع أن يقدموا الشمبانيا . وسرعان ما تطلقت وجوه القوم وثابت إلى نفوسهم البهجة . وكأن الأب

توشار لم يرَ ولم يحس ولم يع ، فظل يردد بين يديه قرص الخبز وهو ينشد :

أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا هذا الخبز الملعون !

ورأى المحتفلون قنـانى الشمبانيا بأقنعتها الفضية على أيدى الخدم فهبت فى نفوسهم ثورة العاصفة وزمجر فى حناجرهم صوت الرعد وصاحوا منشدين :

أيها الأطفال الأعزة ! حذار أن تمسوا ذلك الخبز الملعون !

الموسوم

فى الناس من يولد ومعه غريزة متسلطة ، فلا يكاد يبلغ حد التفكير والتعبير حتى تتحرك فى شعوره وتصرخ فى دمه . فالسيد سكرمنت لم يجل فى ذهنه منذ طراءة سنه إلا فكرة واحدة : هى أن يكون موسوماً ، أو حامل وسام . فكان وهو فى حداثته يحمل وساماً من الزنك كما يلبس الأطفال قبعات الجنود ، ثم يقدم يده في عظمة وزهو إلى معونة أمه فى الطريق وقد رفع صدره الصغير المزدان بالشريط الأحمر والنجمة المعدنية . وبعد أن درس دراسة سقيمة عقيمة فشل فى امتحان البكالوريا . ثم التاث عليه أمره ولم يدر ما يصنع ، فتوسل بغناه إلى أن تزوج من فتاة جميلة . ثم عاش هو وهى فى باريس عيش السراة من الحضر ، يلابسان عالمها ويعتزلان عالم الناس ، ويلهجان بصداقة صابطين من ضباط الفرق ، ويفخران بمعرفة عضو من أعضاء مجلس النواب يمكن أن يصير يوماً ما وزيراً . ولكن الفكرة التى سكنت رأس السيد سكرمنت منذ أيامه الأولى لم تزل حديث أمانيه وبلبال صدره ؛ فهو لا ينفك فريسة للألم الملح لأنه لا يملك

الحق فى أن يحمل على ردنجوته ذلك الشريط الصغير الملون . وكان منظر الموسومين(Décorés) الذين يلقاهم فى الشارع الأكبر يلوع فؤاده ويوقد صدره ؛ فهو ينظر إليهم عن عُرض نظر الحسد والحنق . وربما قضى أعصار أيام العطلة الطويلة يعد هؤلاء واحداً بعد واحد ، ثم يقول لنفسه : « ما أكثر من لقيت منهم بين شارع المادلين وشارع درو ! »

كان يمشى وئيد الخطى يفحص ملابس الناس بعينين قد مرنتا على تمييز تلك النقط الحمراء من بُعد ، حتى إذا بلغ الغاية من نزهته كان عجبه من عدد الموسومين قد بلغ الغاية من نفسه : « ثمانية أوسمة من رتبة ضابط ، وتسعة عشر وساماً من رتبة فارس . ذلك كثير ! وإن من السفه أن تبذر الحكومة هذا التبذير فى الأوسمة على هذه الصورة . تأمل فظاعة الحال إذا لقيت مثل هذا العدد فى الرجعة ! » ثم يعود أدراجه وهو يهوِّد فى مشيه ؛ فإذا شغلته زحمة الناس عن الفحص فأذهلته عن واحد من الموسومين هاج هائجه واشتد غضبه

كان يعرف الأحياء التى يكثر فيها أولو الأوسمة ، فهم كثار

العدد فى شارع (باليه رويال) ، وعددهم فى شارع الأوبرا أقل منه فى شارع (دلابيه) ، وهم على يمين (البلقار) أكثر منهم على يسراه . ثم هم يفضلون بعض المقاهى والملاهى على بعض . وكلما رأى السيد سكرمنت شرزمة من ذوى الشعور البيض يقفون على طوار الشارع فيربكون المرور ، قال لنفسه : « هاك ضابطاً من وسام جوقة الشرف ! » ثم تملكه الرغبة فى أن يتقدم إليهم فيسلم عليهم

ثم لاحظ أن لضباط هذا الوسام مشية تختلف عن مشية فرسانه ، وأن أوضاع هاماتهم على عواتقهم تختلف فيهم عنها فى الناس ، لأنهم يشعرون أن لهم باسم الحكومة اعتباراً أعلى وخطراً أجل . ثم تأخذه فى بعض الأحيان ثورة من الغضب الاشتراكى الحاقد على الموسومين . ثم يرجع إلى منزله وقد هيجت رغبتَه رؤية الأوسمة ، كما تهيج رؤية الأطعمة شهوة الجائع ، فيقول فى صوت قوى : « متى نتخلص من هذه الحكومة القذرة ؟ » فتسأله زوجته وقد فجأها هذا التصريح : ماذا بك اليوم ؟ فيجيبها : « إن ما بى هو السخط على الجور الذى يقترف

فى كل مكان . لعمرى إن الشيوعيين على حق ! »

عاد بعد الغداء فخرج ، وأخذ يتأمل معارض الأوسمة فى بيوتها ويتوسم علائمها المختلفة الأشكال والألوان ، فود لو أنه ملكها جمعاء ، وأنه أصبح على رأس موكب فخم فى صدر قاعة حاشدة تتلألأ على صدره هذه الأوسمة ، وقد رُكبت أنواطها المفوفة واحداً فوق واحد على حسب درجاتها المتفاوتة ، ثم يمشى مشية النافج الوقور وهو يتوهج توهج الشمس فى لجب من همس الإعجاب وهتاف التجلة

ولكنه وا أسفاه لا يملك لقباً من الألقاب يخوله الحق فى وسام من الأوسمة : إن وسام اللجيون دونور ، أو جوقة الشرف (كما قال لنفسه) بعيد المنال عن رجل لا يؤدى وظيفة عامة . فهلا يحاول أن ينال درجة من درجات الأكاديمية ؟ ولكنه لا يعرف السبيل إلى ذلك فتحدث به إلى امرأته ، فقالت له فى عجب ودهشة : « درجة من درجات الأكاديمية ؟ ! وماذا فعلت حتى تبلغ ذلك ؟ فأجابها فى حدة وغضب : « إفهمى ما أريد . إنى أبحث فيما ينبغى أن أعمل ! إنك غبية فى بعض حالاتك »

فابتسمت الزوجة الحسناء وقالت : صحيح ! إنك على حق ، ولكنى لا أعرف أنا ماذا ينبغى ! » فسنحت للرجل فكرة فقال : « لعلك إذا كلمت النائب (روسلين) فى هذا الموضوع ظفرت منه بنصيحة ثمينة . أنا كما تعلمين لا أجرؤ على أن أبدأه بهذا الحديث ، ذلك شيء دقيق محرج ، فإذا صدر عنك كان طبيعياً لا حرج فيه

نزلت السيدة سكرمنت على مقترح زوجها ، وذهبت إلى النائب روسلين فوعدها أن يكلم الوزير . ولما احتثه السيد سكرمنت قال له النائب : لا بد أن يقدم طلباً يسرد فيه شهاداته ودرجاته . شهاداته ودرجاته ؟ ! إنه لم يحمل من ذلك شيئاً حتى البكالوريا . على أنه مع ذلك عكف على العمل وشرع يؤلف رسالة عنوانها : (حق الشعب فى التعلم) ، ولكن الأفكار لم تواته فعجز عن إتمامها . ثم أخذ يبحث عن موضوع أسهل منالا وأقرب مصدراً ، فجرى على باله هذه الموضوعات متعاقبة : « تعليم الأطفال بالنظر » ويريد بذلك أن يُنشأ فى كل حى من الأحياء الفقيرة مسارح بالمجان للأطفال يحشرهم فيها والدوهم فيتلقون بها مبادىء المعارف البشرية عن طريق الفوانيس السحرية . تلك دروس حقيقية يعلم

النظر فيها المخ ، فتبقى الصور منقوشة على لوح الذاكرة ، ويصبح العلم منظوراً بهذه الطريقة . ولا تجد أسهل منها فى تعليم التاريخ العام ، والجغرافيا ، والتاريخ الطبيعى ، وعلوم النبات والحيوان والتشريح ألخ . ثم طبع هذه المذكرة وأرسل منها نسخة إلى كل نائب ، وعشراً إلى كل وزير ، وخمسين إلى رئيس الجمهورية ، ثم بعث إلى كل صحيفة باريزية بعشر ، وإلى كل صحيفة إقليميه بخمس !

ثم عالج موضوع المكتبات المتنقلة فاقترح أن تسيّر الحكومة فى الشوارع عربات صغيرة كعربات البرتقال موقرة بأشتات الكتب وتجعل لكل ساكن فى كل حى حقاً فى استئجار عشرة كتب فى الشهر بصنتيم . وحجته فى ذلك أن الشعب لا يشغل باله إلا فى اللهـــو ، وما دام الرجل لا يذهب إلى التعليم فيلذهب التعليم اليه .

على أن هذه الأبحاث لم يعبأ بها لسان ولم يعج بها فكر ، ولكنه مع ذلك قدم طلبه ، فأجابوه بأنهم علموه ورقموه ، فلم يبق لديه شك فى الفوز . وانتظر ثم انتظر ، فلم يرد على انتظاره شىء . فعقد النية على أن يسعى للأمر بنفسه ، فطلب الإذن على

وزير المعارف ، فاستقبله فى مكتب الوزير موظف حديث السن ولكنه رصين المظهر ، تمر أنامله على نضد من الأزرار الكهربائية كما تمر يد العازف على مضرب البيان ، فيدعو الحجاب والغلمان والكتبة ، فأكد له هذا الموظف أن مسألته تسير قُدُماً فى طريقها الواصل ، وأشار عليه أن يستمر فى أبحاثه الخطيرة . فانتصح السيد سكرمنت وحسر عن يده للعمل

أصبح النائب روسلين يهتم أشد الاهتمام بفوز سكرمنت ويتحرى له ما استطاع الوجوه العملية والنصائح الحكيمة . وهو نفسه قد ظفر بوسام لا يدرى أحد إلى اليوم الأسباب التى أهلته لهذا التميز . اقترح على السيد سكرمنت دراسات جديدة ، وقدمه إلى بعض الجماعات العلمية التى تعالج على الأخص مسائل العلم الغامضة ، رجاة أن يدرك من ورائها بعض الشرف ، ثم أوصى به رجال الوزارة

وفي ذات يوم كان النائب المحترم يتغدى عند صديقه السيد سكرمنت (فقد دأب منذ شهور على أن يأكل عنده) فقال له فى صوت خافت وهو يصافحه : « لقد ظفرت لك اليوم بنعمة

كبيرة : حملت لجنة الأعمال التاريخية على أن تكلفك خدمة ، فناطت بك أن تقوم ببعض الأبحاث فى مكتبات فرنسا المختلفة »

لم يكد السيد سكرمنت يسمع هذا الخبر حتى استرخت قواه فلم يستطع أن يأكل ولا أن يشرب . ولم يمر على هذا الحديث أسبوع حتى كان الرجل يضرب فى مدن فرنسا ، يزور المكاتب ، ويتصفح الفهارس ، ويقلب المخطوطات . وبلغ به المطاف مدينة (روان) فحدثته نفسه أن يركب إلى باريس ليرى روجته ، فقد مضى على مفارقته إياها أسبوع .

ركب قطار الساعة التاسعة فبلغ منزله منتصف الليل . وكان لديه مفتاح البيت ، فدخل وهو ساكت الصوت صامت الخطى ، يرجف من السرور ويتسلف لذة المفاجأة .

كانت امرأته محبوسة فى غرفتها ، فيا لِلسأم ! !

نادى الزوج زوجه من وراء الباب : « يا جان ! يا جان ! إنه أنا ! »

لا شك أن جان قد فزعت وريعت ، لأنه سمعها تثب من

فوق السرير ، وتتحدث وحدها كما يتحدث النائم فى الحلم ؛ ثم أسرعت إلى مقصورة زينتها ففتحتها ثم أغلقتها ، وجالت فى الغرفة مراراً حافية القدمين سريعة الخطى ، فصدمت بعض الأثاث فصوّت ما عليه من أكواب وقوارير وتحف . وأخيراً قالت تسأل : « أهو أنت يا إسكندر ؟ »

فأجابها إسكندر : نعم إنه أنا : افتحى إذن .

فتح الباب وألقت زوجه قلبها على قلبه وهى تقول مغمغمة : « أوه ! يا للرعب ! يا للمفاجأة ! يا للفرح ! ثم أخذ الزوج ينضو ثيابه على أسلوب علمى مرتب ، شأنه فى كل شئ ؛ ووجد معطفه على كرسي فتناوله ليعلقه على مشجب الدهليز على عادته ، ولكنه وقف بغتة وقفة الذاهل المشدوه ، لأنه رأى فى عروته شريطا أحمر ! وأقبل على امرأته يجمجم ولا يكاد يبين :

« ه . . . ها . . . هذا المعطف موسوم ! »

حينئذ قفزت امرأته قفزة فكانت فوقه ، وأخذت بيديها المعطف وقالت : « كلا ! إنك واهم ... أعطنى إياه » . ولكنه

ظل ممسكا بأحد ردنيه لا يرسله ، وقال فى جنون وحدة : « هيه ! لماذا ؟ أخبرينى . . . لمن هذا المعطف ! إنه ليس معطفى لأنه يحمل وسام اللجيون دونور . » فجهدت المرأة كل الجهد أن تنزع المعطف من يديه وهى مستطارة اللب تدمدم بهذا الكلام : « اسمع ! اسمع . . . أعطنى إياه . . . لا أستطيع أن أبوح لك بشئ . . . هذا سر . . . اسمع . . . » فتكدر الرجل وانكفأ لونه وقال : « أريد أن أعرف كيف كان هذا المعطف هنا . إنه ليس معطفى » وصاحت المرأة فى وجهه قائلة : « بلى . اسكت . أقسم لى . . . اسمع . . . لقد أنعم عليك بوسام . . . فاعترت الرجل هزة من التأثر تفكك لها جسمه فأرسل المعطف من يده وذهب فارتمى على مقعد

— تقولين . . . إنى . . . إنى . . . أنا . . . موسوم ؟

— نعم . . . وإنه لسر . . . سر عظيم !

ومضت بالمعطف المجيد فغيبته فى خزانة الثياب ثم أقبلت على زوجها تقول وهى مضطربة شاحبة : « هذا معطف جديد استصنعته لك . وقد أقسمت لا أفضى إليك بشئ . إن ذلك

الانعام لا ينشر رسمياً قبل شهر أو ستة أسابيع . يجب أن تتم العمل الذى كلفت به ، ولا ينبغى أن تعرف الخبر إلا بعد رجوعك . إن النائب روسلين هو الذى طلب لك هذا الانعام »

فاسترخت مفاصل السيد سكرمنت وقال فى غمغمة : « روسلين الموسوم . . . وسمنى بهذا الوسام . . . أنا . . . هو . . . آه ! » واضطر المسكين أن يشرب كوبا من الماء . . .

وكانت على الأرض ورقة صغيرة بيضاء قد سقطت من جيب المعطف ، فالتقطها السيد سكرمنت ونظر فإذا هى بطاقة قرأ عليها : روسلين : عضو مجلس النواب »

فقالت له امرأته :

« أرأيت ؟ لعلك تصدق ! »

فشهق الرجل من السرور وأخذ يبكى من الفرح

ولم تمض ثمانية أيام حتى نشرت الجريدة الرسمية أن السيد سكرمنت قد أنعم عليه بوسام اللجيون دونور من درجة فارس مكافأة له على خدمات استثنائية

جولی رومان

منذ عامين كنت أسير فى اثر بيع على ساحل البحر الأبيض . وألذ الأشياء أن تفكر وأنت سائر فى الطريق على عجل . وهل أجمل من أن تسير فى الضياء وفى الهواء على حَدُور الجبل أو على سِيف (١) البحر وأنت تحلم ؟ ويا كثرة ما ينثال على نفسك الهائمة فى هاتين الساعتين اللتين تمشيهما أحلامُ الحب وأوهام الخاطر ! تهب عليك الأمانى المبهمة البهيجة فترشفها مع النسيم العليل الفاتر ، فتُحدث فى قلبك شهوة السعادة كما يُحدث المشي فى نفسك شهوة الطعام ؛ وتطير حواليك الخواطر السواحر عِجالاً مغرِّداتٍ كأنها أطيار الربيع !

كنت أسير فى ذلك الطريق اللاحب (٢) الذاهب من سان رفائيل إلى إيطاليا ، أو بالحرى ذلك الزخرف الأنيق المتغير الممتد الذى تراه فتحسبه خُلق ليمثل جميع ما قال الشعراء من قصائد الغزل وأناشيد الغرام . وكنت أفكر فى أن الناس إنما يأتون هذه البلاد من (كان) حيث يسترفهون ، إلى (مونا كو) حيث يقامرون ، ليظهروا الزهو والصلف ، أو ليتعاطوا اللهو

---

(١) سيف البحر بالكسر : ساحله (٢) اللاحب : الواضح

والسرف ، فيمرضوا تحت هـــذه السماء الحافلة بالسحر والجمال ، وفوق هذه الجنـة الحالية بالورد واليرتقال ، غطرستهم السافلة ، ودعاواهم الباطلة ، ورغباتهم الخسيسة ؛ ويصوروا الذهن البشرى على جبلته الأولى من الحقارة والجهالة والـكبرياء والطمع . وعلى حين بغتة رأيت فى آخر فرضة من الفُرض الرائعة التى يصادفها السائر فى كل منعطفٍ هناك ، أربعة جواسق أو خمسة يقمن فى وجه البحر ، وتحت أقدام الجبل ، وأمام غابة موحشة من الصنوبر تمتـــد وراءهن إلى بعيد فى واديين كبيرين لا طريق فيهما ولا منفذ

وكان أحد هذه الجواسق أنيقاً معجباً ، فقيّد بصرى بحسنه ، واستوقف خطاى على بابه . وهو مسكن صغير أبيض الجدران أسمر النوافذ قد كسته الورود المتسلقة من أساسه إلى سقفه . أما حديقته فبساط من الزهر تجمَّع فيه كل لون وكل شكل ، فكان خليطاً عجيباً من الأناقة الفريدة والظرف النادر . فإذا سرحت بصرك فى أفنيته وجنباته رأيت الخضرة النضيرة تغطى كل شبر من أرضه ، وألفاف النَّوْر تجمِّل كل درجة من سلمه ، وعناقيد

الورد الأزرق أو الأصفر تتدلى على واجهته ، وأكاليل الزهر الأحمر تتألق على أعمدة مَشْرَفه ؛ وأبصرت من خلفه ممشى من أشجار البرتقال المزهرة يمتد حتى يقف عند حضيض الجبل

* * *

دنوت من الباب فقرأت عليه هذا الاسم مكتوباً بحروف صغيرة من الذهب : (فيلا أنطان) فقلت لنفسي : ليت شعرى أى شاعر أو أية حورية يسكن هنا ؟ أى مُخْتَـلٍ ملهم كشف هـذا المـكان وشاد فيه هذا المنزل الذى تطير حوالَيه الأحلام ويتنزل عليه الإلهام ويطيف به الجمال كأنما نبت فى طاقة من الريحان والزهر ؟

وكان على مقربة من هناك عامل من عمـال الطرق يقطع الصخر ، فسألته : مَن صاحب هـذه الجنة ؟ فقال : السيدة جولى رومان

جولى رومان ! لطالما سمعت وأنا فى فجر أيامى هـذا الاسم يتردد على الأفواه ! ذلك اسم الممثلة الـكبيرة منافسة الممثلة الشهيرة

راشيل ! تلك هى الفنانة الفتانة التى لم تنل امرأة ما نالت من تصفيق المعجبين وتنافس المغرمين وتدليل الأحبة ! ما أكثر ما وقع فى سبيلها من حوادث المبارزة والانتحار ! وما أشهر ما استفاض حول اسمها من المغامرات والأحاديث !

ما عمر هذه الساحرة المغوية اليوم ؟ ستون ؟ سبعون ؟ خمس وسبعون ؟

جولى رومان ! هنا ، فى هذا البيت ! هنا ، تسكن المرأة التى تيممت أندر العبقريات الشعرية ، وأنبغ القرائح الموسيقية فى هذا البلد !

لا أزال أذكر تلك الرجفة التى أصابت فرنسا بأسرها وأنا يافع حين فرت هذه الممثلة إلى صقلية مع هذا ، بعد أن قطعت أسبابها مع ذاك

لقد سافرت مع حبيبها الشاعر ذات مساء بعد أن مثلت إحدى المآسى الحديدة ، وهتف لها الجمهور نصف ساعة متصلة ، ودعاها إلى الظهور إحدى عشرة مرة متعاقبة . سافرت هى وهو على مركبة البريد كما كانوا يسافرون يومئذ ، فعبرا البحر ليحييا حياة

الهوى والصبابة فى الجزيرة العتيقة تحت ظلال الرتقال التى تـكتنف « بالِرْمَ » ، وتسمى صدفة الذهب

لقد كان الناس يتحدثون عن صعودهما إلى بركان « أطنة » ويذكرون كيف انحنيا على فوهته الوسيعة وهما ملتصقان خدا لخد يريدان أن يلقيا بنفسيهما فى هاوية جهنم

لقد مات ! مات صاحب الشعر المضطرب الذى أدار بعمقه رأس جيل ، وفتح بدقته وأسراره عالماً جديداً للشعراء الجُدُد

ومات الآخر كذلك ! مات ذلك المهجور الذى ابتـكر من أجلها جملا من الموسيقى بقيت فى كل ذاكرة ، وتراكيب من النصر واليأس حزَّت فى كل قلب

وبقيت هى بعدهما فى هذا البيت المنتقب بالزهور المحتجب فى خميلة من الفتنة !

* * *

غمزت الجرس غير متردد ولا متلـكئ ، ففتح الباب غلام فى نحو الثامنة عشرة من عمره . على وجهه ويديه دلائل الحمق

والبلاهة . فناولته بطاقتى بعد أن كتبت عليها تحية رقيقة للممثلة العجوز ، ورغبة شـديدة فى أن ألقاها ؛ فلعلها تعرف اسمى فتسمح لى بالدخول

ذهب الخادم ورجع ، فطلب إلى أن أتبعه ، فتبعته إلى بهو نظيف ظريف ضخم الأثاث على طراز لويس فيليب . وكانت فيه جارية فى سنتها السادسة عشرة ممشوقة القوام عليها مسحة من الحسن ، فرفعت مكنستها احـــتراماً لى ، ثم انصرفت وبقيت وحدى

* * *

كان على حوائط البهو ثلاث صور : صورة للممثلة فى أحد أدوارها ، وصورة للشاعر فى ردنجوته ، وصورة للموسيقار أمام بيانه . وكانت هى فى زى ذلك العهد شقراء فاتنة تبتسم بشفتها الرقيقة وبعينها الزرقاء وقد تأنق المصور فى صورتها وافتنّ فجاءت بديعة متقنة . وكان كل ما فى البهو يُشعر بالقِدم ويتحدث عن الأُلاَّف الذاهبين والأيام الخوالى

فتح أحد الأبواب ودخلت امرأة شمطاء نحيلة الظل ضاوية ، قد لفع رأسها الشيب وابيض حاجباها وأهدابها فبدت كأنها الفارة البيضاء . فمدت يدها إلىّ وقالت فى صوت لا يزال على طراوته وحلاوته ورنينه :

— شكراً لك يا سيدى ! فإن من كرم الخلال أن يفكر رجال اليوم فى نساء الأمس ! تفضل بالجلوس

ذكرت لها أن جمال بيتها استهوانى وأغوانى فسألت عن صاحبه ؛ فلما عرفت أنه هي لم أستطع أن أقاوم رغبتى فى طلب الإذن عليها . فقالت : إن ذلك ليثلج صدرى ويبهج نفسى ياسيدى . وهذه أول مرة يقع فيها مثل ذلك . حينما أُلقيتْ إلىّ بطاقتك وعليها كلمتك الرقيقة عرتنى هزة شديدة كأنما أنبئت بقدوم صديق قديم غاب عن عينى منذ عشرين سنة

أنا امرأة ميتة ، ميتة حقاً ، لا يتذكرني أحد ، ولا يفكر فىّ إنسان حتى يأتيني الموت الحق . ويومئذ تتحدث الصحف عن جولى رومان ثلاثة أيام فتقص على قرائها ذكرياتها ومغامراتها ونوادرها ومآثرها ، ثم يمحونى النسيان ويطوينى البلى

ثم سكتت برهة وعادت تقول :

وليس ذلك اليوم ببعيد . بعد بضعة شهور أو بضعة أيام ، لا يبقى من هذه المرأة الحيـــة إلا هيكل صغير من العظام — ثم رفعت بصرها إلى صورتها التى تبسم لها وقالت : لهذه العجوز ! لصورتها المضحكة ! ثم نظرت إلى صورتى الرجلين الشاعر المحتقِر والموسيقار الملهم فـكأنما سمعت أحدهما يقول للآخر : « ماذا يبتغى منا هذا الطلل الدارس ؟ »

فأخذ بكظمى حزن لا يوصف ولا يغالب : حزن على العمر الذى انقضى ولا يزال يضطرب فى الذكريات اضطراب الغريق فى الماء العميق

وكنت أنظر وأنا فى مكانى المركبـات الفاخرة تخطف على الطريق الذاهب من نيس إلى موناكو ، وفيها الفتيات الرشيقات عليهن مظاهر الغنى ودلائل السعادة ، والرجال المستبشرون عليهم آثار الرخاء والغبطة . فنظرتْ إلى ما أنظر إليه ، وفهمت ما أفكر فيه ، فقالت مغمغمة وهى تبتسم ابتسامة المستسلم : لا يستطيـع المرء أن يكون بعدَ ما كان !

فقلت لها : لَشَدَّ ما كانت الحياة فى عينك جميلة ! فتنهدت ثم قالت : نعم كانت جميلة رخية ! ومن أجل ذلك آسف عليها أشد الأسف .

ورأيتها على استعداد لأن تتحدث عن نفسها فأخذت استفهمها فى رفق وحذر كما يجس الإنسان القرح الممض . فتكلمت عن فوزها وغبطتها ونشوتها وأصدقائها وعن كل ما يتصل بحياتها الناجحة المجيدة . فسألتها :

وهل أنت مدينة بهذا السرور المرح وتلك السعادة الخالصة للمسرح ؟

فأجابت فى شدة وحدة : أوه ! كلا

فابتسمت أنا وعادت هى تقول وقد نظرت إلى الصورتين نظرة حزينة :

إنى مدينة بكل ذلك لهما

فلم أتمالك أن سألتها : لأيهما ؟

فقالت : لهما معاً ، حتى لأخلطهما بعض الخلط فى ذاكرتى الشيخة . وقد أحس فى نفسى وخز الضمير لأحدهما ، اليوم !

فقلت لها : لست مدينة لهما بشئ يا سيدتى ؛ إنما أنت مدينة بسعادتك للحب فهو وحده الذى يجب أن تعترفى له بالجميل والشكر . وما كان هذا أو ذاك إلا ترجماناً له

فقالت : ذلك جائز . ولكن أى ترجمان كانا !

فقلت لها : وهل أنت موقنة بأنك كنت لا تجدين فى دهماء الناس من يحبك خير الحب وكل الحب ، فيقدم إليك قلبه وفكره ووقته وحياته ، بينما هذان لم يقدما إليك إلا خصمين مَخُوفين هما الموسيقى والشعر ؟

فصاحت تقول بذلك الصوت الرخيم الحنون الذى يحرك أوتار القلب :

لا يا سيدى ، لا . ربما كان غيرهما يحبنى أكثر منهما ، ولكنه ما كان يستطيع أن يحبنى مثلهما . آه ! لقد غنيانى أناشيد الغرام على لحن لا يتسنى لغيرهما أن يوقعه ! اشد ما أطربانى وأسكرانى ! هل كان فى مقدور إنسانٍ ما أن يجد ما وجداه هما من السحر فى الألحان والأوزان ؟ وهل يكفى المرء أن يحب إذا كان لا يقدر أن يضع فى حبه أنغام السموات والأرض ؟

لقد عرف هذان الرجلان كيف يسبيان عقل المرأة بالنغم والكلم . أجل ربما كان فى هوانا من الوهم أكثر مما فيه من الحقيقة ؛ ولكن هذا الوهم يحملك فوق أطباق السحاب على حين تدعك الحقيقة ملقى على أديم الثرى . فإذا كان غيرهما قد أحبنى أكثر مما أحبانى ، فإنهما وحدهما علمانى كيف أفهم الحب وأحسه وأعبده

قالت ذلك ثم تقاطرت دموعها اليائسة فى سكون وصمت ، فتغاضيت عن ذلك وجعلت أنظر إلى بعيد حتى ثابت إلى نفسها بعد لحظات واستأنفت تقول :

كل مخلوق يا سيدى يشيخ قلبه متى شاخ جسمه ؛ ولكننى لا أخضع لهذه القاعدة ، فإن جسمى المسكين قد بلغ التاسعة والستين ، بينما قلبى البائس لا يزال فتياً لم يتجاوز العشرين . ولذلك ترانى أعيش وحدى بين الزهور والأحلام

ثم تولانا صمت طويل عاودها فيه الهدوء فعادت تقول وهى تبتسم :

إنك لتسخر منى إذا علمت . . . إذا علمت كيف أقضى أماسىّ كلما كان الجو جميلا والطبيعة مشرقة . أنى لأثير فى نفسى

الخجل والرثاء فى وقت معاً

فحاولت حملها على أن تقول لى ماذا تفعل فلم أنجح . فهممت بالقيام ، ولـكنها هتفت بى قائلة :

— الآن ؟

فأجبتها أنى سأتعشى فى مونت كارلو . فقالت فى شئ من الحياء والحشمة : أتقبل أن تتعشى معى ؟ إن ذلك يملأ قلبى سروراً وغبطة

فقبلت دعوتها على الفـور ، فتهلل وجهها لذلك ، ودقت الجرس فجاءت الخادم فأمرتها بما تريد ثم قامت فطافت بى كل مكان فى البيت

* * *

وكان للبيت طنُف مزجج مزدان بالشجيرات المزهرة يفتـح على غرفة الطعام فيرى الجالس فيه ممشى البرتقال الممتد إلى الجبل ، وبين ضمائم العشب والزهر تجد مقعداً واطئاً يدل وجوده على أن الممثلة العجوز كثيراً ما تأتى فتجلس فيه

تجولنا فى الحديقة ننظر إلى فنون الزهر وضروب الشجر

وأنواع الرياحين ، وكان المساء يقبل على رُوِيد[١] وهدوء ، فينشر فى جو السماء الفاتر أريج الورد والفاغية [٢] ، ولم يكن غير قليل حتى غابت أواخر النهار فى أوائل الليل ، وحان موعد الطعام فجلسنا إلى المائدة

كان العشاء لذيذاً طويلاً ارتفعت فيه الكلفة بينى و بينها حتى فطنت إلى ما نشأ لها فى قلبى من شدة الميل وصدق المودة . وشربت إصبعين من النبيذ كما كانوا يعبرون من قبل ، فاطمأنت إلىَّ بأنسها ، وأطلعتنى على دخيلة سرها . قالت :

أنظر إلى القمر ! إنى أحبه وأقدسه . لقد كان الشاهد على سعادتى الجياشة وسرورى المرح . ويخيل إلى أن جميع ذكرياتى منقوشة على صفحته ؛ فما هو إلا أن أطالع وجهه حتى تتهافت على خاطرى سراعاً تباعاً . وفى أغلب العشايا أهيئ لنفسى مشهداً من أروع المشاهد ... مشهداً جميلاً ... جميلاً ... لو كنت تعلم ؟ ... ولكن لا ... إنك لو علمت هزأت بى وسخرت منى .. لا أستطيع .. لا أجرؤ .. لا ... لا ...

فتوسلت إليها قائلاً : سبحان الله ! ماذا ؟ أطلعينى عليه وأنا

---

(١) على رود : على مهل (٢) الفاغية : نور كل نباته رائحة طيبة

أعدك ألا أسخر منه . أقسم لك على ذلك ...

فترددت . ولكنى تناولت يديها المعروقتين الباردتين وقبلتهما مراراً واحدة بعد أخرى كما كان حبيباها يفعلان . فتحرك لذلك قلبها فقالت فى شئ من التردد :

أتعدنى ألا تضحك ؟

فقلت لها : أعدك وأقسم

فقالت : إذن تعال

ونهضت فنهضت معها ، وكان الخادم الصغير الأبله ينحى الكرسى من ورائها فهمست إليه بكلمة سريعة فقال :

سمعاً وطاعة يا سيدتي . على الفور

وأخذت بذراعى فمشينا تحت الطنف ؛ وكان الممشى متعة للنظر وبهجة للقلب ، والبدر الطالع يرسم فى سوائه خطاً طويلاً من الضوء كأنه شريط من الفضة ، يقع على الرمل الأصفر بين رءوس الأشجار المدهامّة ؛ وكان الشجر فى نشوة إزهاره يسطع شذاه العبق الحاد فأفعم الليل كله . وكنت ترى من خلال خضرته

الحوّاء آلافا من الحباحب (١) تطير مضيئة لماعة كحبات النجوم ، فهتفت قائلاً :

ما أحرى هذا الزخرف بمشهد من مشاهد الحب !

فابتسمت ثم قالت :

أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ سترى !

ثم أجلستنى بجانبها وجمجمت قائلة :

ذلك ما يبعث الأسف والأسى على الحياة . ولكنكم لا تفكرون فى شئ من ذلك يا رجال اليوم . إنكم ماليون وعمليون وتجار وسماسرة ! حتى الحديث إلينا لا تحسنونه ولا تعرفونه . وإذا قلت (نا) أردت الشوابّ الكواعب .

لقد أصبح الحب فى رأيكم علاقة تبتدئ فى الكثير الغالب بحساب الخياطة ، فإذا وجدتم الحساب أغلى من المرأة قطعتم ؛ وإذا وجدتم المرأة أغلى من الحساب دفعتم .

صداقة ظريفة . . . عادات طريفة !

---

(١) الحباحب Luciole ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه كالسراج

ثم أمسكت بيدى وقالت : أنظر ! فنظرت فإذا منظر عجيب يشدّه الفكر ويذهل الخاطر : هناك في طرف الممشى وفى ضوء القمر أقبل فتى وفتاة يتهاديان وقد أخذ كل منهما بخصر الآخر . كانا يمشيان هوْناً على الشريط الفضى فتتعاقب عليهما أضواء القمر وأظلال الشجر . وكان الفتى في لباس من الدمقس (١) على طراز القرن الماضى ، وعلى رأسه قبعة مُراشة بريش النعام .

وكانت الفتاة ترتدى حلة شمسية (٢) الذيل وقد ذرّت على شعرها الزَّرور الأبيض ، وصففته على نحو ما كان يصنع الحسان فى العهد الغابر . فلما صارا على مائة خطوة منا وقفا فى وسط الممشى وأخذا يتعانقان على أرق ما يكون الغزل والعناق بين عاشقين

تفرست فى الحبيبين فإذا هما الخادمان : الغلام والجارية ! وحينئذ استخفني الفرح وماد بى السرور حتى التوى جسمى على المقعد . ومع ذلك غالبت رغبة الضحك كما يغالب الجريح رغبة الصياح فلم أضحك . ولكن الخادمين عادا إلى آخر الممشى فعاد منظرهما أخّاذاً يملك القلب . ثم أخذا يبتعدان رويداً رويداً ،

---

(١) الحرير الأبيض الصفيق (٢) ديلها على شكل المظلة

ويختفيان شيئاً فشيئا ، حتى ذهبا كما يذهب الحلم

* * *

وانقلب الممشي بعدهما موحشاً كئيب المنظر . وذهبت أنا أيضاً حتى لا أراهما على الحال الطبيعية . فإن هذا المنظر الذى بعث الماضي كله يجب أن يبقى طويلاً . أجل ، بعث ذلك الماضى كله ، ماضى الغرام والزينة والبذخ ! ماضى التصنع والخداع والغواية ! ماضى الرشاقة والفتنة بالحق وبالباطل ، ذلك الماضي الذى لا يزال يحرك شعور الممثلة الشيخة ، ويهز قلب العاشقة العجوز !

المِثَال

كانت مدينة (اتريتا) ذات الصخر الأشهب والحصى الأبيض والبحر الأزرق تستريح تحت الشمس الصاحية ، فى يوم من أيام يوليو الضاحية . وكان منظرها العام أشبه بالهلال قد انتهى طرف استدارته ببابين أحدهما صغير وهو الأيمن ، والثانى كبير وهو الأيسر ، ثم تقدما فى الماء الساكن فخوض كلاهما فيه ، وارتفعت قمته حتى بلغت مستوى الصخور . وكان قد جلس على شاطئها المديد جماعة من المصطافين ينظرون إلى المستحمين . واحتشد على مَشرف الكازينو جماعة أخرى قائمة أو قاعدة تعرض تحت أضواء الشمس المشرقة جنة مزهرة من الزينة تسطع فى خلالها المظلات الحمر والزرق مطرزة بأزهار الحرير الملون . وانعزل فى آخر المشرف على طريق النزهة فريق آخر من المصطافين يريدون السكون وينشدون الراحة ، فوقّعوا خطاهم الوئيدة على أنغام الموج بعيداً عن زحمة الأجسام وضجة الأصوات . وكان بين هؤلاء شاب معروف نابه هو الرسام جان سومير . كان يمشى ساهما واجما بجانب عربة صغيرة من عربات المقعدين يدفعها الخادم فى هون ورفق ،

وقد جلست فى هذه العربة زوجته وهى فتاة فى ريق العمر تسرح النظر الحزين فى جمال السماء وزينة الأرض وبهجة الناس

كان الزوجان يسيران على هذه الحال لا يتبادلان الكلام ولا النظر ، حتى قالت الزوجة :

— لنقف هنا قليلا . فوقفا ، وتقدم الخادم إلى الرسام بكرسى صغير من القماش فقعد عليه . وكان كل من مر بالزوجين الساكنين الساكتين يلقى عليهما نظرة حنان وحزن . فقد اضطربت الألسنة بأن حادثاً من حوادث الإخلاص والتضحية قد وقع بينهما ، إذ تزوج الشاب منها على الرغم من عاهتها المزمنة تأثراً من حبها إياه كما يقال . فقال رجل لآخر وكانا جالسين على مقعدين بجيلان نظريهما فى الفضاء :

— كلا ، ليس هـــذا صحيحاً . أنا أعرف جان سومبر جد المعرفة

— إذن لماذا تزوجها ؟ فقد كانت حين الزواج على هذه العاهة ! أليس كذلك ؟

— نعم هو كذلك ؛ ولـكنه تزوجها . تزوجها كما يتزوج

الناس حمقاً وسفاهة

— وبعد ؟

— وبعد ؟ ليس هناك بعد ولا قبل يا صديقى . الإنسان أحمق لأنه أحمق. وأنت تعلم من خصائص الرسامين الزواج المضحك ؛ فهم يتزوجون على التقريب كل الأمثلة modèles ؛ وقد يتزوجون من الخدينات العجائز ، ومن السيدات المعوهات لأى سبب من الأسباب ! لماذا ؟ لا يعلم أحد لماذا ؟ يخيل إلى على العكس بأن طول معاشرتهم لهذا النوع من النساء الفواجر اللاتى يسميهن الناس (أمثلة) جعلهم يعافون جنس الأنثى ، فأنهم بعد أن يجلسوهن ليرسموا صورهم على مثالهن يتزوجونهن . اقرأ الكتيب الصادق القاسى الجميل الذى ألفه الفونس دوديه بعنوان (نساء الفنانين)

أما الزوجان اللذان تراهما ، فأن الحادث الذى وقع بينهما وقع على صورة خاصة وحال فظيعة

لقد مثلت هذه الفتاة مهزلة ، أو بالحرى مثلت مأساة أليمة . لقد قامرت بكل ما تملك لتربح كل شئ أو تخسر كل شئ .

هل كانت مخلصة ؟ هل كانت تحب جان ؟ لا يدرى ذلك إلا الله . ومن ذا الذى يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعاً ما فى عمل النساء من زور وحق . إنهن مخلصات دائماً فيما يبدو عليهن من آثار انفعالاتهن ومظاهر عواطفهن . فهن ساخطات مجرمات مخلصات كريمات لئيمات على حسب ما يجرى فى شعورهن من البواعث والآثار . وهن لا يفترن عن الكذب من غير أن يردن ولا يعلمن ولا يفهمن . وفيهن مع ذلك وعلى رغم ذلك صراحة مطلقة فى الأحاسيس والعواطف اللاتى يظهرنها . حكام وحلول عنيفة غير متوقعة ولا مفهومة ، تضلل منطقنا فى الرأى والحكم ، وعادتنا فى التعديل والتوفيق . فالمفاجأة والعنف فى عزماتهن يجعلانهن ألغازاً لا تحل ، فنحن لا نبرح نسأل هذا السؤال : « هل هن صادقات ؟ » « هل هن كاذبات ؟ »

ولكنهن يا صديقى صادقات كاذبات فى وقت معاً ، لأن فى طبيعتهن أن يكن صادقات كاذبات على أشد ما يكون الصدق والكذب ، أو لا يكن على شئ منهما أصلا

أنظر إلى الوسائل التى يتوسل بها أكرم النساء ليبلغن منا

ما يردن ، تجدها وسائل معقدة وساذجة ؛ فهى معقدة بحيث لم تقع فى حدسنا من قبل ، وساذجة بحيث ترانا بعد أن نصبح من ضحاياها لا يسعنا إلا أن نعجب منها ونقول : « كيف ! لقد خدعتنى بحمق وغباوة » . ثم إنهن ينجحن دائماً يا عزيزى ، وعلى الأخص إذا تعلق الأمر بزواجهن . وهاك قصة السيد جان سومير :

كانت الفتاة مثالاً كما علمت ؛ فكانت تجلس فى مرسمه على الأوضاع التى يريدها . وهى بارعة الشكل ظريفة الطبع رشيقة القوام ، فعشقها كما يعشق الإنسان كل فتاة على مثالها فى الجمال والفتنة . ثم تخيل أن حبها قد أخذ بمجامع قلبه . وهناك ظاهرة غريبة : إذا ما رغب الإنسان امرأة ظن مخلصاً أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها بقية عمره ، ولكنه متى ملكها زهدها . ولن تستطيع الشهوة البهيمية أن تمسكه بجانبها طول الحياة ، فلا بد من شئ آخر هو توافق النفس والطبع والمزاج . ومن واجب الرجل أن ينظر حين تفتنه المرأة : أهذه الفتنة صادرة عن إغراء الجسم ، أم عن جاذبية الروح ؟ وقصارى الكلام أنه أحبها أو ظن ذلك ،

فعاهدها على الإخلاص وواعدها على الوفاء ، ثم عاش هو وهى على هذا الأمل . وفى الحق كانت الفتاة ظريفة ، وزاد فى ظرفها تلك الغباوة اللطيفة التى تتصف بها الباريسيات الصغيرات ، فهى تثرثر وتهذر وتنطق بالحماقات التى تجعلها الطريقة الغريبة التى تلقيها بها أشبه بالبراعات الذهنية . وكان لها فى كل لحظة حركات تفتن بها عين الرسام : فهى حين ترفع ذراعيها ، وحين تبسط يديها ، وحين تنحنى ، وحين تركب العربة ، تريك حركات محكمة مقدرة مناسبة . وفى غضون ثلاثة أشهر لم يلحظ جان أنها في حقيقة أمرها تشابه سائر (الأمثلة) فاستأجر بيتاً صغيراً فى (اندريسى) ليقضيا فيه الصيف . وكنت هناك ذات ليلة حين أخذت الهموم الأولى تنبت فى قلب صديقى ؛ وكانت تلك الليلة قمراء ، فأردنا أن نجول جولة على ضفة النهر ، وكان القمر يرسل على الماء المرتعد وابلاً من الضوء ، ويكسر أشعته الصفراء على دارات الماء وتيار اللجج وعباب النهر البطئ الهارب

كنا نسير على طول الشاطئ نشاوى من ذلك الطرب المبهم الذى تبعثه فينا هذه الليالى الحالمة ؛ وكانت نفوسنا مهيأة

لأعمال فوق أعمال البشر ، وقلوبنا مفتحة لحب كوائن شعرية مجهولة ؛ وكنا نشعر بالجذبات والرغبات والأمانى تختلج فى نفوسنا ، فلزمنا الصمت مفتونين بصفاء السماء وطراءة الليلة الجميلة ، وعذوبة البحر التى خيل إلينا أنهـا نفذت إلى الجسم وغمرت الذهن وعطرته وغمسته فى السعادة

وعلى حين بغتة صاحت جوزفين (وهو اسم الفتاة) قائلة :

— هل رأيت السمكة الـكبيرة التى وثبت هناك !

فأجاب جان من دون أن ينظر أو يعلم :

— نعم يا عزيزتى

— كلا إنك لم ترها ، لأن ظهرك كان إليها ، فابتسم وقال : نعم هذا صحيح ، فان الجو قد استولى بجماله علىّ فلم أفـكر فى غيره

فأمسكت عن الـكلام ، ولـكن شهوة الحديث ملـكتها بعد لحظة فسألت جان :

— أذاهب أنت غداً إلى باريس ؟

فأجابها :

— لا أعلم

فعادها الغضب ، وقالت :

لعلك ترى مما يبهج نفسك أن تتنزه وأنت صامت . إن الانسان إنسان لأنه يتكلم ! فلم يجب على قولها بشئ . وفطنت هى بفضل غريزة المكر فيها إلى أنها ستحنقه ، فأخذت تغنى ذلك اللحن المثير الذى آذى الآذان والأذهان منذ عامين ومطلعه :

كنت أنظر فى الفضاء . . . فقال لها مغمغما :

— اسكتى من فضلك ؛ فقالت له محتدة :

— ولماذا تريد أن أسكت ؟ فأجابها :

إنك تفسدين علينا المنظر

هنا حدث المشهد الكريه السفيه بعتابه المفاجئ وحسابه المبتَسر ، فاحتقنت الوجوه وانهمرت الأعين ، ثم عادا إلى البيت . وكان جان قد تركها تمضى فى ثورتها لا يدافع ولا يهاجم ، لأنه كان يخدر الأعصاب بنشوة هذه الليلة العلوية التى هبطت بها

إلى الأرض هذه العاصفة الهوجاء

ومضت بعد ذلك ثلاثة أشهر كان الفتى يضطرب اضطراب القنيص فى هذه العلاقة القوية الخفية التى تربطنا بها العادة فى مثل هذه الحالة . كانت الفتاة لا تنفك ترهقه إرهاق المضطهد ، وتعذبه عذاب الشهيد ، فصار يومهما وليلهما شجاراً متصلا لا يخلو من سباب وضرب

وأخيرا صمم على أن تنتهى هذه الحال على أى وجه و بأى ثمن . فباع رسومه واقترض من أصدقائه بعض المال حتى حصل فى يده عشرون ألف فرنك فوضعها ذات صباح على المدفأة ومعها كتاب الوداع وترك لها المنزل ولجأ إلى بيتى

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر قرع الباب ، فذهبت أفتحه فاذا هى فى وجهى لا تكاد تملك نفسها من الخنق والقلق . فارتبكت أنا ، ودخلت هي ، ورآها هو من بعيد فوقف حتى أقبلت عليه ورمت بين قدميه الغلاف وفيه الأوراق المالية ، وقالت فى هيئة نبيلة ولهجة موجزة : هاك نقودك . لا حاجة لى بها . وكانت حينئذ ممتقعة اللون مضطربة البال حرية بأن تأتى

كل حماقة . وكان هو كذلك كاسف الوجه محنق الصدر حريا أن يرتكب كل شدة . فسألها : ماذا تريدين ؟ فقالت : لا أريد أن تعاملنى معاملة البغى ، لقد توسلت إلىّ حتى سكنت إليك ، فأنا لا أطلب إلا أن تبقينى عندك

فضرب الأرض برجله وقال منفعلا :

لا ، هذا كثير . إذا كنت تظنين أنك . . . فجذبته أنا من يده وقلت له : دعنى يا جان أفعل . ثم تقدمت إليها وأخذت أكسر من غضبها بكل ما يمليه الخاطر فى مثل هذه الحال ، وهى تستمع إلى جامدة شاخصة صامتة مصرة . فلما فرغت جعبتى والحال لا يزال على أشده ، لجأت إلى آخر الحيل فقلت : إنه لا يزال على حبك يا صغيرتى ، ولكن أسرته تريد أن تزوجه ، وأنت تعلمين . . . ! فأخذتها رجفة قوية وقالت :

— آه .. ! آه ! لقد فهمت الآن ! ثم التفتت إليه وقالت : تبغى أن تتزوج ؟ فأجابها فى شدة وحزم :

— نعم . فخطت إليه خطوة وقالت :

إذا تزوجت قتلت نفسى . أتسمع ؟

فهز كتفيه وقال : حسن ! اقتلى نفسك . فنبست بكلمة أو كلمتين وقد أخذ يكظمها الهم القاتل : أتقول ؟ . . أتقول ؟ . . أتقول ؟ . . أعد ! فقال معيدا : اقتلى نفسك إذا كان هذا يسرك ! فقالت وشحوبها يزداد وحالها تسوء : لست فى حاجة إلى التحدى . سألقى بنفسى من النافذة . فضحك جان بملء فيه ومضى إلى النافذة ففتحها ، ثم حيا وانحنى ، كمن يريد أن يقدم عليه غيره فى المشى ، وقال : هذا هو الطريق ! تفضلى ! فثبتت فيه نظرها الحائر الطائر لحظة ، ثم جمعت نفسها كمن يريد أن يقفز سياجا فى حقل ، ومرت أمامه وأمامى إلى النافذة ثم اختفت !

* * *

لا أنسى ما حييت ذلك الأثر الذى أحدثته في نفسى هذه النافذة المفتوحة ، وقد هوى منها ذلك الجسم ! لقد رأيتها فى تلك اللحظة واسعة كالسماء فارغة كالفضاء ، فرجعت القهقرى ، ولم أجرؤ على النظر كأننى خشيت أن أسقط . وتبلد جان فلم يستطع الحراك ولا النظر . وتسابق الناس فأتوا بالفتاة مكسورة

الساقين ، فلم تمش على قدميها بعد اليوم . وتقدم حبيبها مبلبل الصدر من وخز الضمير ، منفعل النفس من اخلاص الفتاة ؛ فآواها إليه وتزوج منها

ذلك يا عزيزى حديث هذين الزوجين

وأقبل المساء ، فرغبت الفتاة فى العودة خشية البرد ، فأخذ الخادم يدفع عربة الكسيحة نحو القرية ؛ ومشى الرسام بجانب امرأته وقد مضت عليهما ساعة من الزمان لا اللسان يخاطب اللسان ، ولا النظر يبادل النظر .

إكسوس وملكريا

فى ذات يوم لا أذكر من تاريخه إلا أنه كان لعامين من موت هرقليس ؛ كانت مدينة (دلفى) تموج بالنـاس وتعج بالضوضاء وتزخر بالفتوة . كان ذلك اليوم آخر أيام الألعـاب الفيتونية . ومن أعجب الأشياء أن الصراع والسباق كانا يجريان على غير مشهد من أحد ، والرياضيين والسواقين كانوا ينتصرون على غير علم من إنسان ، حتى قيل إن الشاعر سيمندس كان ينشد رائع الشعر فى الفرس المجلّى ولا يستمع إليه يومئذ إلا بطله ! ذلك لأن كلمة واحدة طار بها السماع فطارت بالقوم من ميدان اللعب إلى معبد أبولون :

« هاهم أولاء أبناء هرقليس ! هاهم أولاء أبناء هرقليس ! »

ومن فى الناس لا يضحى بمقعده في الملعب ليرى أبنـاء هرقليس سيد أبطال الأغريق ؟ وكانت أثينا منذ شهر قد استيقظت ذات صباح فوجدت هؤلاء الأبناء مخلوعين مضطهدين مشردين يتهافتون فى الساحة العامة على مذبح الرحمة فثارت بها الحفيظة لشكواهم ، ونزت فيها القلوب والسيوف لبلواهم ، ثم بعثت بهم

فى هـذا اليوم على رأس السفارة المقدسة إلى دلفى يستنبئون آلهتها عن مصدر هذه الحرب

ودلفى كما تعلمين (١) مدينة مقدسة تفيض جوانبها بالعجائب والناس يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وأنا كأولئك الناس في هذا اليـوم لا أريد أن أنتقل بك من البرناس إلى الهيبدروم ، ولا من الهيبدروم إلى منصة أبولون ، فإنك ولا شك قد حججت إلى هذه الأماكن منذ طويل فى (سياحة أنا كرسيس) ، وأنا — ولا أخفى عنك — مشوق كذلك إلى رؤية أشبال هرقليس.

كان الشعور الذى استولى على الأغريق لدى رؤيتهم أولئك الأبطال يترجم عنه هذا الهتاف الإجماعى الصاخب : « يا للآلهة الخالدين ! ما أوفى القوام وما أصلب العضل ! » وكان فى الجمع شيخ سبط العظـام ، تحسبه وفى يده عصاه المذهبة وعلى جبينه عصابته البيضاء ، ملـكا من ملوك الأغريق العشرين ، مال على كاهن من كهنة أبولون ، وهو يجتاز المعبـد حاملا مبخرة من

---

(١) يوجه الكاتب الحديث إلى صاحبته التى دعاها أخته ، وكتب إليها طائفة من الأقاصيص عنوانها (أقاصيص إلى أختى) contes a ma soeur وهذه إحداها.

مباخر العطور ، وقال له في صوت خافض :

— لقد عرفت هرقليس وزوجه ديجانير حق المعرفة ، فما عرفت لهما غير ثلاثة بنين ، فمن إذن هذه العذراء المنتقبة التى تجلس مع أبناء هرقليس على مقعد واحد ؟

— كلامك يا أبى الحق لا مرية فيه ، فليس لهرقليس من ديجانير غير ثلاثة بنين ، ولكن له من زوجته الأخيرة (يول) ..

— فقاطعه الشيخ قائلا : صحيح ! ثم ضرب على جبينه بأصبعه علامة التذكر وقال : لقد روى لى (فيلوكتيت) هذا الحديث عشرين مرة ؛ ولكن قرنين من الزمان يدوران على الرأس لا بد أن يضعضعا فيه الذاكرة ! نعم أذكر الآن أن هذا الزواج أعقب بنتاً ... فارتفع من وراء الشيخ صوت ندىٌ عذب بهذه الجملة :

— بنتاً وابناً يا أبى

فالتفت الشيخ فرأى يافعاً شاحب اللون هش العظام فى زى أهل الأرجوليد يردد فى احتشام وخجل :

— بنتاً وابناً وهما إكسوس ومكريا

فتبسم الشيخ ضاحكا من الغلام ، وقال للكاهن : أنظر ! فى (بيلوس) يهتف الناس بعلمى ، وفى (أرجوس) يرسلون إلىَّ تلاميذهم ليعلمونى . . .

ثم قال للغلام : من الذى أنبأك هذا يا بنى ؟ وماذا تسمى ؟ ولكن الفتى لم يتحمل ملاطفة نسطور (وهو الشيخ) فأفلت منه وغاب فى زحمة الناس دون أن يجيب

وكان ذلك الهتاف لا يزال يدوى فى الفضاء لا يعتريه فتور ولا يناله تغيير :

« يا للآلهة الخالدين ! ما أوفى القوام وما أصلب العضل ! » ولعلك تعجبين لهذا الإطراء ، وتحملينه على محمل الاستهزاء ، ولكنك تذكرين أننا فى بلاد قسمتها طبيعة الأرض ومطامع الناس إلى عشرين دولة صغيرة ، يتضارب أقيالها الصِّيد من شدة الزحام بالمرافق والمناكب . وكان العرف الدارج فى الأمم القديمة أن يقتتل الناس رجلاً لرجل ، وجسما لجسم ، فجعلوا قوة البدن جماع القوى وملاك الفضيلة ؛ وكانوا يتوسمون مخايل الكفاية والفضل فى قبضة اليد وقوة الكتف ، كما نتوسمها نحن اليوم فى

أسرار الجبهة ولمحات العين . وحسبك أن هرقليس رمز القوة ومثالها كان إلهاً !

تأخر ظهور الكاهنة الوسيطة التى يتكلم بلسانها الاله (la pythie) ولكن أحداً لم يسمع هنين السأم ، ولم يلمح عبوس الانتظار ، لأن الجمهور كان يجد فيما يرى غذاء لفضوله وريا لشوقه : كان يرى هِلُّوس بكر هرفليس وأكبر الأخوة ، وهو محارب عملاق عارى الذراعين مجدول العضلات مطهم الوجه ، فيجده وعلى منكبيه جلد الأسد ، وفى يده الهراوة العقداء ، أشبه بأبيه من الليلة بالليلة . ثم يري أنتينور وهو سوْغُ (١) هيلوس وأدق منه ملامح وأرشق منه قامة . كان يتشح بقداسته الجديدة ، ويبتسم لشباب الأغريق ، ومنخراه منفوخان يتنسمان عبير الاعجاب فى نشوة ولذة . وعلى الجملة كان الإله أنتينور شديد الخيلاء والصلف ؛ أما أخوهما (إيجسط) فكان لا يشبههما فى شيء غير القوة والشهامة . كان وجوده فى هذا

---

(١) يقال : هو سوغ أخيه وسيفه إذا ولد بعده وليس بينهما ولد ، وهو بالفرنسية (puiné)

العصر وفى هذا المصر خطأ صارخاً فى تقويم الزمن . وأعجب شيء فيه أنه كان أشقر الشعر ساهم الوجه منقبض المزاج ، وانقباض المزاج عاطفة عصرية مسيحية . ثم كان يرجع من المعارك الدامية الشعواء إلى الدار عذب الروح حيي الطبع ، كأنه أحد أولئك المحار بين الشقر من أهل الشمال : يصرعون المردة والأغوال ثم يطأطئون الهام ويحرمون الكلام أمام عصا ساحرة صغيرة . كان وهو يتحسر على عرش (أرجوس) كأنما يأسى على شيء أعز عليه من عرش ! فإلى أين إذن كانت تصعد زفراته وتتبخر دموعه ؟ إلى بيت صديق ، أم إلى قبر أم ؟ علم ذلك عند الله ؛ فإن سره لم يسافر عن ضميره إلى أحد ، حتى أخته مكريا ، وهى أمينة سر الأسرة لم يفض إليها بذات صدره . وكانت مكريا جالسة إلى جانبه تصلى ...

عفوا يا أختاه (١) ! لقد شغلت بالأبطال عن العذراء ، ولكنها هى الملومة ! أنظرى ! إنها مستترة فى ظل إخوتها ، كأنها تحرص على أن تغفلها العيون . إنها لم تكشف عن وجهها

---

(١) يريد الكاتب أخته هو

النقاب بعد ، فقسماتها لا تزال مجهولة ، ولكنك أسلفت لها الحب ولا شك ، لأنك سمعت منذ قليل أنها وديعة تقية

* * *

وأخيراً أعانوا ظهور الكاهنة الوسيطة ، وكان الوهن لا يزال باديا عليها من أثر ما أصابها من اختلاج الأعصاب فى وساطتها الأخيرة بين الآلهة والناس . فهى تجر نفسها جراً من الأعياء والجهد حتى بلغت المنصة متكئة على كاهنين من كهنة أبولون . حينئذ انفتح فى جوف المحراب باب على مصراعيه فاقتحمته هبة عريضة من الهواء العازف ، فتشعت دخان القرابين وهزت الجمع الحاشد فضج الناس قائلين : « الإله ! هذا هو الإله ! » وعندئذ اضطربت النبية المعذبة فى المنصة اضطراب الذبيح ، فخشعت الأصوات وأصغى القوم

بدأت الكاهنة أمرها بالشهيق ، ثم اتبعته بمقاطع من الأنين والصراعة ، ثم انتهت إلى كلمات ذاهلة لا تسفر عن معنى ، ثم تكلم الإله بلسانها فقال :

« إن (منيرفا) ستقاتل . . . ! وعلى خوذتها الالهية

ستصيح البومة : « إني عطشى » ويذهب جهدها باطلاً

تدعو مينرفا ألهة النصر

وإلهة النصر أختها فلا تخذلها . . .

إنى أسمعها وهى قادمة تئز أجنحتها فى الهواء . . .

ولكن البومة تصيح : إنى عطشى ، وأريد أن أرتوى بالدماء . . .

إن أرجوس تنتظر ملوكها لتؤلههم :

إضطربى وميدى يا أرجوس ! إن البومة فى طيرانها السفاح تحوّم فى الجو باحثة عن جبهة تقية تضحيها .

إنها تحوم وتحوم ثم تقع على . . . ولد من أولاد هرقليس »

* * *

وفى هذه الساعة الرهيبة العصيبة على أبناء هرقليس ، لم يكن فى المعبد من ملك نفسه وضبط حسه غير أبناء هرقليس !

على أن الكاهنة لم تكد تمسك عن الكلام حتى صاح بها هيلوس :

— عيّني الضحية بالاسم

ولـكنها كانت تتساقط من الضعف على درَج المنصة ولم يبق منها إلا رمق . فقال كبير الـكهنة : إن الإله كان جبار القلب غليظ الـكبد ، فإذا استأنفت التجربة قتلها ولا شك . فليقدم أحد أبناء هرقليس نفسه

فارتفع من بين الجمع ذلك الصوت الرخيم الذى تـكلم منذ هنيهة من وراء نسطور وقال : أنا أقدم نفسي ! فقال له الـكاهن في لهجة قاسية : « من أنت ؟ وماذا تسمى ؟ » فأجابه الغلام : « أنا ابن هرقليس واسمى إكسوس »

فانفجر الناس بأصوات الدهش لهذا الجواب المفاجئ . ثم قال قائل منهم يتهكم : « إذا صدق قوله فقـد صدق اسمه » وستعلمين يا أختاه أن إكسوس كلمة يونانية معناها العلّيق ، فكأن أبويه عند ما ولد وسماه بهذا الاسم احتقاراً لشكله واستصغاراً لشأنه . والحق أن هذا المخلوق الهش يشبه فى انتسابه إلى هذا الأصل القوى ذلك النبتَ الطفيلى الرخو الذى تعبث به الريح وهو قائم على جذوع السنديان

دلف (تينور) إلى الغلام وقال له بلهجة الحانق المتوعد : لقد منعناك أن تتبعنا إلى دلفى ... » ولـكن ابنة هرقليس التى ظلت إلى تلك الساعة ساكنة ساكتة محتجبة ، ألقت نفسها بين الأخوين فقطعت من بينهما الشر . ثم أخذت الصغير من يده وخرجت به من المعبد وهى فى صمم عن نداء هيلوس يدعوها إليه ، وفى ذهول عن هتاف الإعجاب الذى انبعث عن يمينها وعن شمالها ، لأن نقابهـا انحسر من ذات نفسه لسرعة المشى وشدة الحركة ، فبدت مكريا للعيون بارعة الجمال رائعة الحسن لطيفة الروح ، وقد زاد فى جمالها تلك الشفقة التى تجلت فى صوتها وفى عينها . والشفقة عاطفة تجمّل القبح ، فـكيف يـكون أثرها فى الحسن ؟

* * *

عادت أسرة هرقليس كلها إلى أثينا فى مركبة واحدة ، وقد عقد الأبطال الثلاثة قلوبهم على أن يقترعوا بينهم غداً فى معبد منيرفا ليعلموا أيهم يجب عليه أن يموت . وكان إكسوس المسكين قد جاء فى اختيال ومرح يضع اسمه مع أسماء إخوته فى الصندوق

ولـكنهم منعوه ودفعوه معتقدين أن من الإهانة للآلهة أن يهيئوا للقدر ــ وهو فى أغلب أمره ساخر عابث ــ الفرصة ليقدم إليهم هذا القربان الضئيل الأعجف . أما أختهم مكريا فلم يشاءوا أن يَعرضوها معهم على رغبة الموت لسبب آخر غير سبب إكسوس : لقد كانت خطيبة (ليـكوس) وهو زعيم من زعماء أثينا ذوى الرأى المسموع والأمر النافذ ، (وأثينا هى التى غضبت لهم تلك الغضبة وشهرت دونهم السيف) فهم يحرصون لسبب سياسى أو أدبى على ألا يقطع الاستعداد للتضحية الاستعدادَ للزفاف . لذلك وجدت مكريا غرفتها بعد عودتها تضـوع بعبير الألطاف والتحف التى قدمها (ليـكوس) ؛ ولـكن نفسها وهى تتسلف الحداد على أخ من إخوتها لم يهزها كرم الهدايا ولم يسرها جمال التحف . على أنها رأت إكليل الزفاف مصوغاً من الزنبق الجميل النضر ، فحملته ووضعته على جبينها من غير إرادة ولا وعى . وفى هـذه اللحظة سمعت من خلفها زفيراً يتصعد فى ضعف ، فالتفتت فإذا هى ترى إكسوس ! إكسوس أخاها الذى جمعت له فى قلبها الأم والأخت فى وقت معاً . إكسوس الذى عنيت به وأشبلت عليه لأنه

عليل الجسم مبذوء الهيئة . إكسوس الذى لا يخطو فى البيت خطوة إلا بابتسامة من مكريا تبدد بؤسه وتجدد أنسه ، فإذا غابت عن الدار غاب عنه الأنس واستولت عليه الوحشة

كان ينظر إلى الزهور الرمزية والدمع يجول في عينه ، والهم يعتلج فى صدره ، والألم الممض يرتسم على أسرار وجهه . فاستطير فؤاد أخته من الخوف عليه ، لأنها تعودت أن تراه يشكو ويتألم منذ اثنى عشر عاما ، فلم تجده يوماً على مثل هذه الحال من الكمد المقلق واللوعة الأليمة ، فأقبلت عليه تعتذر إليه وتسرى عنه وتقول :

— أوه ! أعفُ عنى واغفر لى يا طفلى المسكين !

— أنا أعفو عنك وأغفر لك يا مكريا ؟ علام إذن والسعادة التى غمرت بها قلبى وعمرت بها وجودى ؟

— لا تشكر لى عنايتى بك . ذلك دين أقضيه ..... ذلك تكفير أؤديه ....

فانبعثت من عينى القتى المشدوه نظرات ضارعة تسأل أخته حل هذا اللغز . فقالت له : سمعَك إلىَّ ! منذ أربع سنين

(كان عمرك يومئذ ثمانى سنوات وعمرى أربع عشرة) جرت بين أسرتنا حوادث عجيبة وأمور خارقة لم يصل علمها بأبى ولا بأخوتى . لعلك تذكر ذلك الكوخ الذى بنوه على شاطئ البحر ليختفوا فيه من أعين المضطهدين الكثيرين الأقوياء . كنت فيه ذات مساء وكان أبى وإخوتى فى الصيد . وكنت أنت منهوك القوى من كثرة ما جريت في الغابة طول النهار ، فاستسلمتَ على هدهدة المطر والريح لنوم ثقيل . وكان الليل قد أقبل منذ حين وأبى وإخوتى لم يقبلوا بعد ؛ فسمعت قارعاً يقرع الباب فذهبت أفتحه وفى حسبانى أن أجد الصيادين والصيد ، ولكنى وجدت عابر سبيل يطلب الدفء والمأوى برهة من الزمن فأدخلته . ثم جلست إلى جانب سريرك ، واشتغل هو بتجفيف ثيابه على نار الموقد . وما كان أشد دهشتى حين رأيت نوراً لطيفاً يتلألأ على شعره الأشقر ! عزوت (١) ذلك النور بَدْيًا (٢) إلى انعكاس النار التى فى الموقد ، ولكن الموقد خبا وغرّة المسافر ما تزال مشرقة ! حينئذ أدركت أنه أپولون ، أپولون الذى طرد من الأولمب فهام متنكراً فى العالم على وجهه . ثم بقيت على رغم تنكره بقايا النور

(١) عزوت : نسبت (٢) بديا : أول الأمر

من هالته (١)

فخررت جاثية أمامه وقلت : ماذا تبتغى منى أيها الآله العظيم ؟ فقال : « لا شئ غير المأوى . على أن المطر قد كف والجو قد صفا ، فأنا ذاهب وسأقبلك قبلة الوداع » فتقدمت واجفة القلب ، مضطربة الحواس إلى عمى ، وقدته من يده إلى مرقدك ، وقلت : « الأولى أن تلاطف هذا الصبى المسكين فأنه لم يظفر بعد بملاطفة إلآــه . إلمس وجنته الذابلة فتنضر ، وانفخ فى شفته الباردة فتغنى » فتبسم أپولون لرجائى ، ودنا منك فنفخ فى فمك من روحه ، ولـكن نفخته كانت قوية مضطرمة ، فسرت إلى قلبك فأفعمته وأشعلته ! من أجل ذلك كان قلبك يحترق ولا يفتر عن الوجيب ! ومن أجل ذلك كان جسمك يذوى وروحك لا تستجيب .... وهأنذا وقفتك على جلية الأمر فهل تصفح عنى ؟

فما كان جواب إكسوس إلا أن قبل أخته . فقالت له : « إن برهان عفوك عنى أن تنقاد لى وتسمع منى . قل يا قليل الحـكمة بأى معجزة نجوت من الموت جوعاً وظمأ فى طريقك

(١) الهالة دائرة من نور تـكون حول الآلهة والقديسين

الطويل من أثينا إلى دلفى ؟

فقال إكسوس : أوه ! كنت من الصباح إلى المساء أسترجع النشاط بالغناء ، وأستفتح الأبواب بالنشيد فكلما دلى الدخان على وليمة فى أحد البيوت طرقت الباب وأنشدت الأغنية فيفتح لى أهله و ينزلوننى خير منزل

فتبسمت مكريا وقالت : أغنية عجيبة ! هل لك أن تعلمنيها يا إكسوس حتى أغنيها أنا أيضاً فى ذهابي إلى دلفى أو إلى الأولمب ؟

فتمنع إكسوس وتدلل على عادة المغنين فى كل عصر ، ثم نزل على مشيئة أخته بعد رجاء قليل

أغنية اكسوس

— ١ —

إفتحوا ! أنا إكسوس المسكين . أنا عُلَّيقَةُ السنديانة التى إن تمر عليها هبَّة الريح تَمُت ،

منذ اثنى عشر عاماً سقط قزم من جلد الأسد الذى يتنكبه هرقليس ، فكنت أنا ذاك القزم . كان أبى لا يحبنى لأننى كنت صغير الجثة رقيق البدن . وحينما كنت أصطدم بركبتيه وأنا طفل

كنت أسمع فوق رأسى زمجرة كزمجرة العاصفة . وكان إخوتى يضربوننى كلما دعوتهم إخوتى ! ومع ذلك أريد أن أعيش ، لأن لى أختاً تحبنى وتحن على . هى الجميلة الكريمة مكريا !

افتحوا ! أنا اكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى ان تمر عليها هبة الريح تمت

— ٢ —

قال لى إخوتى ذات يوم : « اجتهد أن تكون صالحاً لشئ . . تعلم إقامة التماثيل وشيادة الهياكل ، فلعلنا نصير يوماً آلهة » فحاولت أن ألبى مبتغى اخوتى ، ولكن الأزميل والمِنحت كانا ثقيلين على يدى . ثم كانت هناك رُؤى غريبة تطوف بينى وبين جنادل (باروس) ، وكانت إصبعى الناحلة الذاهلة تخط فى التراب اسما لا تخط غيره : اسم أختى الحبيبة مكريا

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عُليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٣ —

حينئذ قال لي إخوتى : « إن فى مضيفنا شيخاً من شيوخ الكلدان يقرأ فى صفحة السماء أسرار الغيب وأنباء المستقبل ، فاستمع إليه ، وتثقف عليه ، ثم قل لنا أترى فى مطاوى السحب كنوزاً أو نصراً ؟ » فسمعت من الشيخ ؛ ثم قضيت ليالى طويلة أرصد النجوم والغيوم فلا أري كنوزاً ولا نصراً . إنما كنت أرى عيون السماء تنظر إلىّ نظر المحب ، كأنها عيون مكريا ..

افتحوا ! أنا إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٤ —

حينئذ قال لى إخوتى : « خذ قوساً ونشاباً واخرج إلى الصيد فى الغاب » فجُبْت الغاب بقوسى ونشابى ، ثم لم ألبث أن نسيت إخوتى وذهلت عن صيدى . وبينما كنت أسمع غناء الرياح وتغريد البلابل أقبلت ظبية فأكلت طعامى من جيبي ، ثم جاء

طائر صغير أعياه طول الطـيران فنام فى كنانتى (١) ، فحملته إلى مكريا !

افتحوا أنا ! إكسوس المسكين ! أنا عليقة السنديانة التى إن تمر عليها هبة الريح تمت

— ٥ —

حينئـذ قال لى إخوتى : « إنك لا تصلح لشئ » ثم ضربونى ، ولـكننى لم أبك ، لأن فـكرى كان مشغولاً بأختى ! وغداً سيأخذون منى مكريا ! وغداً ستسأل وهى جالسة فى حفلة الزفاف : ما هذا الدخان الذى يسطع هناك وراء الغار ؟ فيجيبها المدعوون « لا شئ »

« إنها محرقة إكسوس المسكين ، عليقة السنديانة التى عصفت بها الريح فجعلتها كالرميم »

* * *

فصاحت الفتاة وقد ملـكها الحنـان وأدركها الجزع : كلا إنك ستعيش ! وسأجعلك فى قلبي ، حتي إذا ثارت العواصف

(١) الـكنانة جعبة السهام

الهوج لا يمسك منها أذى . إن (ليكوس) سعيد محبوب ، وعذارى أثينا كثيرات يفتحن له دورهن وصدورهن . أما أنت أيها الفريد الشريد الموجع ، فاليك وحدك كل أيامى وأحلامى وحبى !

« خذ يا أخى ، خذ يا شاعرى ! هذا ثمن أغنيتك »

ثم نزعت من فوق جبينها الأبلج إكليل الزفاف وألقته مبللا بالدمع تحت قدمى إكسوس ! فأراد إكسوس أن يجيب ، ولكن التأثر المفاجئ صعق الصبى المسكين فلم يستطع إلا أن يقول بصوت خافت : أوه ! ثم وضع يده على قلبه وخر مغشياً عليه ! ثم بات طول الليل يتضور من شدة الحمى ، وأخته بجانبه لا يغمض لها جفن ، ولا يرقأ لعينيها دمع

وكان الغد موعد أبناء هرقليس إلى المعبد ليقترعوا هناك على الضحية ، فتقدموا إلى الهيكل كما يتقدمون إلى المعركة : قلوبهم فارغة من الهم ، ورءوسهم مرفوعة من العزة . ثم جرت المراسم المألوفة وهى لا تختلف عما رأيناه فى دلفى . وأقبل كاهن من كهنة (مينرفا) فأجال الأسماء فى الصندوق ، ثم تقدم طفل معصوب

العينين إلى الأناء المقدس يستخرج منه حكم الموت . فلم تكد يده تلمس حافته حتى دوى على عتبة المعبد صوت امرأة يقول : « قف ! هاكم الضحية . . »

وكان ذلك الصوت صوت مكريا وهى تتقدم إلى المذبح كاسفة اللون ، كاملة الأهبة ، تنوس على جبينها الأزهر الجميل عَصْبة الذبيحة . فدلف إليها إيجسط وقال : أهنا أنت يا أختاه ! لقد وعدتنى أن تتخلفى لتقومى على سرير إكسوس . فقالت وهى تغالب الدمع وتحبس الزفرة : إن إكسوس مات ! وليس ما يمنعني الآن أن أفديكم بنفسى . ثم تابعت سيرها البطئ إلى الهيكل بين تصفيق الجمع وإذعان الإخوة . ثم جثت مكريا أمام المذبح ، وعوقت بالاشارة مدية الذابح العجلان حتى تلقى على إخوتها ابتسامها الأخير ؛ ثم أغمضت عينيها ، وأزاحت الغطاء عن ثديها ، وكانت بعد دقيقتين جسداً يضطرب على مذبح الهيكل !

ثم أضرموا النار ، وجعلوا منها لأكسوس ومكريا محرقة

واحدة ! وعندئذ رأى الناس شيئاً يصعد من اللهيب إلى السماء ، رفَّاف الأجنحة ناصع الريش رائع الرواء !

وهكذا كانت الفضيلة وهى (مكريا) فى العصور الخوالى تكفل الشعر وهو (اكسوس) وتلهمه . والفضيلة والشعر أجمل ما فى الحياة وأنبل ما في الإنسان



رجل للبحر

للكاتب القصصي هـ. أ. مانهود

عثرت فجأة على الجوسق (١) كما يعثر متصفح الكتاب على صورة ما كان يتوقعها . وكان هذا المنزل الصغير قائماً فى صدر الخليج كأنه جوهرة غليظة الصقل رُكبت على هلال مِشْبك . فإذا أردت أن تصل إليه سرت على الرملة أو اتخذت طريقاً ضيقة تَسلسَلَ على حفافيْها دَغْلان من وحشى النبات ، تنشعب قبل أن تبلغه إلى شعبتين تسيران مع الحوائط المتداعية للحديقة ، ثم تجتمعان من وراء فتصيران مواطئ أقدام تتنقل حتى تدخل المنزل ، فلا يسعك وأنت ترى هذا الطريق المطموس إلا أن تظن أن الذين مروا بهذا المنزل — على ندرتهم — لم يحسوا الرغبة أو لم يجدوا الجرأة ليقتحموا بابه

كان على سطحه ثلاث مداخن شواهق شقت السقف فبدا بها كأنه الكرسى المقلوب ، انفتل على جنباتها خيوط دقيقة من الدخان ، وعلق بهاماتها سيقان طويلة من القش ، يحركها مرُّ النسيم فترقص عل إيقاع متخيَّل . وكان ذلك السطح المصفح

(١) الجوسق هو البيت الريفى المنفرد

بالا ردواز قد اصطبغ بصبغة الذهب الكابى فشابه لونه لون التفاح على أشجاره العارشة فوق الحائط الخلفى . وفى الحديقة اعتصم بالجدران الواطئة المنهارة أدغال شواجن من عنب الكشمش (١) ؛ وعلى صدع من صدوعها قامت شجرة وحيدة من شقائق النعمان كانت تركع وتقوم فى صلاة متتابعة ضائعة تحت عصف الريح المحملة بذرّات الرمل .

لا يستطيع واصف هذا الجوسق أن يقول إنه ينظر إلى البحر ؛ إنما كان يلاحظه عن عُرض ملاحظة الحامى يعتقد أنه فى أمن من ارتفاع المد مهما طغى . وكان على العشب الذابل الحائل زورق أُخرج من الماء فنسجت العناكب على جوانحه غزلها الواهن الهش ، وقد نُقش على جانبيه بحروف تكاد لا تُقرأ :

(ميكائيل سوان — بورت آن)

وعلى مقربة منه شِباك صيد قد نُشرت على أربعة أوتاد فى الرمل على شكل المدرَّج ، تدور بينها فَرَاشتان أمام الذباب الذاهل الغافى ، وألفافٌ من النبات تزدهر تحت النافذة وتنظر

(١) هو العنب البنانى

مُخلسة إلى البحر ، وكومة من الأوراق الصفر قد ارتفعت إلى عماد الحائط ، ومجداف غاص منحرفا فى الرمل متجها إلى الجوسق ، وقد كُتب على صفحته بالحديد المحمى كلمة The كأنها الرمز المهدِّد

دفعت باب الحاجز فتنبه الحارس ، وهو قِط أصحر اللون قد رقد مستديراً فى مَصْيدة عتيقة من مصايد السرطان البحرى ، ثم نظر إلىّ لحظة وعاد إلى نومه من غير أن يتحرك . وكنت قد جاوزت الفناء المبلط بالحجر الغليظ ، ورأيت المطبخ تسطع منه روائح الوقود من اليوكالبتوس والصنوبر وقد دخله ضوء الشمس من بعض الفُرُجات فتدوِّر فوق أرضه كالدنانير ، والموقدَ تندلع فى بهرته ألسنة اللهب الأزرق ، والمائدةَ ينبسط عليها خِوان ممزق ، وامرأةً دقيقة العظام صغيرة الجثة قد حسرت عن ذراعيها وأخذت تكوى بعض الثياب على هذه المائدة فى نشاط وهمة . وكان شعرها القليل قد ردَّته بعناية إلى قذالها فانعقص خفيفاً على قفاها ، ثم فَرَقه على الجبين خط كأنه الطريق فى أرض مغبرّة بور . وكانت شفتاها مضمومتين مزمومتين فتحسبها تجرعت دواء

مراً بقى مذاقه فى فمها . فلما قرعت عليها الباب فزعت ، فشرحت لها سبب زيارتي إياها ، فقالت تعيد ما قلت فى سذاجة :

— تريد لبنا ؟ ثم وضعت مكواتها على وعاء وذهبت إلى خزانة الطعام فكشفت عن إحدى الجرار وقالت : نعم أستطيع أن أعطيك لبناً . . وبيضاً أيضاً . تفضل فادخل هنا واقعد قليلاً . ثم تقدمتنى إلى حجرة ففتحت بابها وقالت : أعتذر إليك من سوء النظام فإن المنزل صغير . وأسرعت إلى الثياب المطوية الموضوعة على الكرسى فرفعتها ، وإلى نسخة ضخمة من التوراة كانت تشغل مقعداً من الشَّعر فنقلتها ؛ ثم نفضت الغبار بذيل مِيدَعتها ، وأصلحت ما تهوش من الغطاء المطرز على مسند الكرسى ثم ولت وهى تقول : لن أغيب عنك طويلا . دقيقة واحدة

* * *

كان لابد أن تعرونى هزة من البرد فى هذه الحجرة . كان أمامى صليب من البلور معلق على الحائط ، ونوع من الأراغين جاثم فى الزاوية . فوقع فى نفسي أن أعزف على هذا الأرغن

المصفَرّ معتقداً أننى متى أمررت أناملى على مضربه غنى معى هذا الكاهن (١) المجهول الذى يحرس البـاب ، وذلك (اللورد نلسون) ، وهذا (الطفل المبذر) ، وسائر هؤلاء الذين يحدقون النظر فىَّ وهم محصورون فى أُطُرِهم الغُبْر فتملأ نظراتهم نفسى روعة ورهبة . لقد عددت — زيادة على عين نلسون الواحدة — ثلاثين زوجاً من العيون ، فكنت على وشك أن أعلن لهـذا القاضى أننى غير مذنب . وكان فى الحجرة غير ذلك تذكارات وكتب تكفى لإقامة سوق : أضغاث من السرخس الجاف ، وزجاجة من ماء الأردن ، وأهرام من فواكه الشمع قد غشّاها الغبار ، وأوانٍ وشماعدُ قد قامت على جدار الحجرة كما يقوم السائلون فى زوايا الطرق. . وكان الورق الملون الذى يكسو الحوائط قد حال لونه فانكفأ (٢) ، وذهب لِصاقه فتهدل ، وموقد المدفأة يمطر من حين إلى حين رذاذاً من السناج (٣) على طاقة ضخمة من الزهر المصنوع من الورق الأبيض . وعلى مسند النافذة كان هناك شئ واحد يسترعى النظرَ جماله : نموذج مصغر لسفينة من سفائن

---

(١) كلها صور معلقة على الحائط (٢) انكفأ اللون : تغير

(٣) السناج : أثر دخان السراج (الهباب)

القرن الخامس عشر صُنع من خشب الزان ، وصُبغ بلون الدخان ، ونُصب عليه شراع مقبَّب كأنما ملأته الريح . وعلى جوانب السفينة أصص كبيرة فيها صبَّار تدلت أوراقه على شكل السكاكين . ومن وراء السفينة تبصر من النافذة المفتوحة ثبج البحر (١) الأدهم وقد انبسط وامتد حتى التقى بالأفق ؛ وعلى غواربه المواجة يجري زورق صغير كأنه الورقة الذاوية

كان يصدر عن المطبخ أصوات مختلفة كرنين الأكواب واصطدام الصينية وسقوط الملعقة . ثم دخلت العجوز الصغيرة فجأة فنشرت خواناً أبيض غير مصقول ، ورفعت عن المائدة المزعزعة ما يغطيها من الأشياء ؛ ثم مدت الخوان فوقها بعناية الورِع الذى يزين بالوشى صدر الهيكل . ولما حدثتها عن الوضع الذى تسقط عليه أطراف الخوان حدقت ببصرها إلى فجأة وقالت مغمغمة وهى تفكر :

نعم يا سيدى : أجنحة من طير النوْرس (٢) كما قلت ؛ زوج فى كل زاوية

ثم صمتت لحظة ، وظهرت فى عينيها الوداعة والحنان كأنها

---

(١) ثبج البحر : معظمه (٢) النورس ويقال له : (زمج الماء) طائر أبيض فى حجم الحمام أو أكبر ، يعلو فى الجو ثم يزج نفسه فى الماء ويختلس منه السمك ولا يأكل غيره

كانت تجتلى رؤيا داخلية . ثم عادت تقول :

إن ولدى كان يقول مثل هـــذه الأشياء : كان يقول إن نسائج العنكبوت هى أشباح العجلات المحطمة والتروس المهشمة . .

ثم وضعت على الخوان كوباً وأناملها ترتجف . فقلت لها : صورة جميلة ! لقد كنت أود لو عرفت ولدك ؛ فإن القليل من الناس هم الذين يسيرون فى الحياة وعيونهم مفتوحة . فاختلجت يداها وتقلصت أناملها فندمت على أن تـكلمت . قالت : إن ولدى مدفون هناك على الرابية . وكأنها كانت لا تزال تسمع جَرْس الـكلمات الذى خفَت فبدا عليها أثر الشك . وصوبت طرفها إلى ركن من أركان الحجرة وقالت : أنا وحدى التى تعرف أنه مدفون هناك .

ثم تألفت على الرغم منها الحروف ، ونطقت على غير إرادتها الـكلمات ، فقالت :

« أنا أعلم أنك غريب ، ولـكن لا بأس . إن سرى يثقل أحياناً على صدرى ، فإلى من أستريح بمكنونه وأسترفه من عبئه ؟ ليس لى إلا ميكائيل زوجى ، وميكائيل لا ينفعه أن يعرف هذا السر أبدا

إن ذلك يقطع نياط قلبه البائس ! واستمرت شفتاها تنفرجان وتختلجان ولكننى لم أسمع شيئاً . ثم دلفت إلى النافذة وتناولت السفينة بيدها فى حيطة ورفق ، وافتر ثغرها عن ابتسامة شاحبة أضاءت على شفتيها كما تضئ الشمعة الضئيلة فى ركن الحجرة الواسعة المظلمة ، ووضعت أمامى نموذج السفينة ثم تطرحت متهالكة على مقعد كأنما أرهقت نفسها فى عمل لا تطيقه ، وقالت بصوت خافت متهافت : ذلك من صنع ولدى ! لقد كان ماهر اليد ثاقب الذهن خصب الخيال ، يتصور الأشياء العجيبة ، ويروى الحوادث الغريبة ، وذلك مما وقع له فى السفر أو سمع به فى البلاد . لقد كان يخيل إلى أني أقرأ التوراة وأنا أسمعه . لماذا أخذه الموت ؟ لقد كان الله حريا أن يعلم . . . ! ولكن لا ينبغى أن أشكو هذه الشكوى ، ولا أن أجزع هذا الجزع . إن ولدى جون كان لا يبرح يقول :

إن الوفاة خير من الميلاد . لقد كان يعرف . . .

وكانت تمسح بيدها على جدار السفينة فى حال من الذهول خدّرت أعصابها ، وأنامت أوصابها ، فعاد صوتها خافتاً كحديث

النفس ، وكلامها عذباً كرنين الموسيقى ، فكانت كلماتها أشبه بالورود تُنثر على قبر !

« لقد كان من الطبيعى أن يصير ولدى بحاراً ، فان ملح البحر كان يلهب دمه . كان وهو صغير يتحدث عن الأمواج كما يتحدث عن أخواته . وكان يسمى كل موجة اسما : فهذه (الكرنبة الجعدة) ، وتلك (الكلابة) ، وهاتيك (الكسولة) . ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى كان يعرف كل بحار العالم . لقد كان مساعد الربان فى سفينته . وكان كلما عاد من سفرة لاحظت فرقاً واضحاً في رجولته وكفايته واستعداده ، فأقول لنفسى وأنا أنظر إليه :

إن جون ولدى لا يرتاع لشئ ولا يتضعضع لحادث !

لقد صنع هذه السفينة الجميلة أثناء رحلته الأخيرة . وكأنى أسمعه الآن حين عاد وهو يثبِّت هذا النموذج على لوح من الخشب يقول :

« هاك يا أماه ! تلك سفينتك قد أرست على المرفأ »

وكان يضحك وهو يقول لنا : تحققوا من وسق المركب .

ولما دخلنا الدار أنا وميكائيل وجدنا رزمة من الأوراق المالية تكفى أن نعيش عليها خمس سنين ، ثم قَدْراً من الدخان لميكائيل ، ومِشْبكاً لى . ولا تسل عما ألم بنا فى تلك الليلة من الأطياف الرائعة والأحلام الجميلة !

لبث فينا ثلاثة أسابيع كانت كلها فرحاً ومرحاً وبهجة . ثم حُمَّ الفراق وأِفد الرحيل ، فصحبناه ذات صباح إلى (بورتسدون) . وطلب إلينا أن نرقب سفينته وهى تقلع فى بكرة الغد إلى عرض (المنش) ، ووصف لنا شكلها ولونها وسِمَتها حتى لا نضلها بين السفن ؛ وقال وهو يودعنا إنه سيعود عما قليل

وفى الحق لقد عاد بعد قليل ! فقد ثارت يوم رحيله عاصفة هوجاء زمجر فيها الرعد وهزمت الريح حتى شق على المرء أن يسمع نفسه . وكنت أنا وأبوه نرى مع ذلك أن الأمور تجرى لولدنا فى مجراها الحسن

رصدنا سفينة (جون) وهى (سبننج كلود) ولكننا لم نر شيئا . على أننا رجونا أن الأمور تجرى لجون في مجراها الحسن . .

ولا يزال ميكائيل يرجو !

انقضت بضعة أيام . وفى يوم سبت رأيت طيور النورس تحوّم على رأس (كتسى) . وقد ظلت ضحوة النهار تتشاجر وتتطاير كأنها قصاصات من الورق تناثرت فى الهواء

لم أدر ماذا كانت تفعـــل ، فقد كنت من عملى في شغل شاغل

وبعد الظهر أقبل رجلان غريبان يطلبان إلىّ لوحا من الخشب وقطعة من قماش الشراع ، فأنهم وجدوا على الساحل تحت الرأس جثة بحار قذف بها البحر . فأعطيتهما ما سألا ، وذهبا ثم عادا بالجثة وهما يلهثان تعباً ، ويتصببان عرقا ، فوضعاها فى مخزن الحب . وكانت تتدلى من تحت القماش الذى لُفت به الجثة مِزْقة من قميص كأنها الجناح الـكسير . فلما انصرف الرجلان نضوت القماش عن الجثمان وفحصت القميص فعرفته . عرفته لأنى طالما غسلته وكويته ! لقد عاد ولدنا جون !

كشطت الأصداف العالقة بحذاء جون ؛ ثم فـكرت فى زوجى فسألت الله أن يعينني على إخفاء السر عنه . فاستجاب الله

لى ، إذ لم يدع فى جثمان جون ولا فى لباسه ما ينم عن شخصيته إلا هذا القميص ؛ وميكائيل ضعيف الذاكرة فلا يستطيع أن يعرفه . ولما رجع فى المساء ذهبت إلى لقائه ، وأخبرته أن الأمواج ألقت فى الساحل جثة بحار . فأقبل يراها . وما أنس لا أنس النظرة التى ألقاها على الغريق ! ولكنه لم يعرف ولدنا جون

ثم خشيت أن يأتى نبأ الغرق فيقوض كل ما بنيته ، فكتبت إلى النواخذة (١) أتحقق الخبر ، فأجابونى أن كل شئ على أحسنه ؛ وأرسلوا إلى ثبت الموانئ مسجلاً فيه ما تلقيه السفينة من الوسوق . فاستنتجت أن ولدنا ألوَت به هبَّة من الريح العاتية ، أو موجة من الأمواج الطاغية ، وهو يحاول على ما أظن أن يلقى نظرة الوداع على منزله . ولم يكن النواخذة على علم بمصرعه . ولن يعلموه هم ومكائيل إلا يوم تؤوب السفينة وعليها مساعد آخر . ولكن (أسبيننج كلود) لن تؤوب ! فقد ابتلعها البحر البعيد على الشاطئ الأقصى من العالم . ونجا البحارة وتفرقوا فى البلاد

---

(١) النواخذة جمع ناخذاة وهم أصحاب السفن ووكلاؤهم

شذر مذر . ويعتقد ميكائيل أن جون استقرت به النوى فى مطرح من مطارح الغربة . وأنه سيكتب إلينا متى جمع ثروة . وأسأل الله أن يثبته دائماً على هذا الاعتقاد وذلك الأمل !

تحركت أذُنا القط الأبيض لحظة حين عبرت الفناء ، ولكنه لم يفتح عينيه تجاهلا لوجودى . وكان الخليج خاليا والزورق الذى رأيته منذ ساعة يجرى على الموج ، قد اضطجع على الرمل كأنه سمكة ضخمة ميتة . وكان (ميكائيل سوان) يخيط زنبيلا مملوءاً سراطين بسلك من الحديد ، فتقدمت إليه وسلمت عليه فهز رأسه فى ذهول وقال :

يوم سعيد ! نهار ضاح جميل !

وكان الرجل عملاقاً أشيب الشعر معروق الأشاجع ، له عينان مظلمتان عميقتان تذكرانك بغرفتين مفروشتين بالقطيفة القاتمة . وكان فى جوف الزورق سمكة غريبة الشكل مهشمة الجسم ، فتناولها ميكائيل بيده وقال فى هدوء وبطء :

عجيبة من عجائب خلق الله ! قنصتها فى مصيدة من مصايد السراطين ثم قتلتها أسرع ما أستطيع

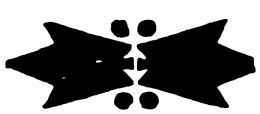
وكأنما كان الشيخ يستغفر لنفسه قوة خفية . فحدثته عن سمكة تشبه هـذه السمكة يجدها المسافرون فى بحر الـكرايب . فنظر الرجل إلى وهو يفكر ؛ وبدا عليه أنه كان ينضد الـكلام الذى يلقيه ، كما ينضد البنَّاء الآجرَّ الذى يبنيه . ثم قال وهو يومئ برأسه إلى الجوسق : لقـد حدثتك عن ولدها . أليس كذلك ؟ إننى أعلم كيف ترك المركب مُرساه وهى معجبة ببحاره . إنها تعتقد الآن ولا شك أنه فى جزيرة من الجزر النائية . ولا بد أن تـكون قد سألتك : هل سمعت الناس يتحدثون عن جون سوان ؟

إن ولدنا عاد ! ولـكن زوجتى لا تعلم . إنها ضعيفة البنية هشة العظام ، فلو علمت أنه دفن فى مقبرة المجهولين لغشيتها ولا ريب صرعة الموت

إن ولدى خطفته موجة من طواغى الموج ، ثم دفع به التيار إلى الشاطئ مشوَّه الوجه مستسَرَّ المعالم . فعثرت عليه قريباً من الرأس حين تنفس الصبح ، فنزعت عنه ما ينم عليه من الأوراق والأزرار والعلائم ، وذهبت قُدُماً إلى (بورتسدون) ألتمس من

يحمله . فلم أكد أترك المكان حتى مر بالجثة رجلان فنقلاها إلى المنزل

إنهما لم تعلم حتى اليوم أن ذلك الجثمان الممزق الذى كان مسجًى فى مخزن الحب كان من لحمها ودمها . لقيتنى فى ذلك المساء فقالت لى فى لهجة تنم عن الأسى المكنون : شاب مسكين وجدوه على الساحل ! لا بد أن نبذل ما نستطيع لنعرف من هو . إن أمه تتحرق الآن شوقاً إلى لقائه ، وتسأل الرائح والغادى عن أنبائه . . . !



قتيلة

الكاتب الإنجليزى أرنولد بنت

فى عصر يوم من أيام الخريف كان رجلان أحدهما (لوماكس هردر) والآخر (جون فرانتينج) يمشيان جنباً إلى جنب فى ساحة البحرية « بكنجات » . وكنجات شاطئ جميل من شواطئ الاستحمام ، وثغر صغير من ثغور المنش . وكان كلا الرجلين حسن البزة موفور الصحة يهدف للخامسة والثلاثين من عمره ؛ وذلك كل ما كان بينهما من شبه . فأما لوماكس هردر فكان دقيق الملامح ضخم الجبهة أشيب الشعر وئيد المشية ؛ وأما جون فرنتينج فكان أغم الجبين ، بارز الذقن ، تشعرك مخايل وجهه بالتحدى ، ويدلك جفاء خَلقه على العربدة

ترى على هردر شارة الشاعر إلا أنه حليق . وفى الواقع أن هردر شاعر رفيع الطبقة فى بيئته التى تجعل للشعر المكانة الأولى وللشاعر الدور الأول . ولكنك ترى على فرانتينج سيما الأفَّاق المغامر الذى يجعل من جسمه بطلاً فى الملاكمة ، ومن قلبه (دون جوان) فى الحب

قال لوماكس هردر وهو يزرُّ معطفه يسأل صاحبه في لهجة

تتم على الثبات والإصرار : أليس لديك ما تقوله ؟ فوقف جون فرانتينج أمام حانوت كتب على واجهته : « جونتل — بائع أسلحة » ثم قال : إن ما لدى لا يعبر عنه الكلام ، فأنا أدخل هنا . ثم اقتحم الحانوت ، وتردد هردر قليلاً ثم دخل فى أثره

كان بائع الأسلحة رجلاً بلغ العمرين (١) عليه سترة من القطيفة السوداء ، فلما رأى فرانيينج بادره بالتحية على طريقة المتخصص الذى طارت شهرته إلى لندن . فرد عليه جون التحية بصوت غليظ أجش ، ثم طلب منه مسدساً . فقال له البائع وهو يعرض عليه بعض الأنواع : لعلك خبير بأصناف المسدسات يا سيدى ! فقال : إن معرفتى بها قليلة . فقال هل سمعت بطراز و بلى — ٣ ؟ إنه خير طراز للاستعمال العادى

وكانت عين السيد جونتل تطلب إلى فرانتينج أن يكفيه رأيه ويقيه اعتراضه . فأخذ يفحص المسدس (و بلى — ٣) ويستمع إلى البائع وهو يقول :

أنظر ! إن له خصيصة تميزه من غيره ، وهى أنك لا تستطيع استعماله وهو فارغ . لذلك تأمن أن ينطلق من ذات نفسه

(١) العمران : ثمانون سنة

فيجرح أو يقتل مرشح الموت . ثم اقتر جونتل عن ابتسامة رقيقة أتم بها هذه النكتة وهى إحدى نكاته القديمة . فسأله فرانتينج فى غضب : وماذا الانتحار ؟

فقال جونتل : آه ! آه ! فطلب منه أن يريه كيف يحشى فأراه . ثم لاحظ الشارى خدشاً فى مؤخر المسدس ، فأخذ البائع يفحصه فى شئ من الألم ثم قال متأففاً : سأعطيك غيره ما دمت صعب المراس شديد المماحكة . فقال له احشه إذا شئت . فحشا جونتل المسدس الآخر وناوله إياه . فطلب إليه أن يجربه ، فقاده إلى قبو وراء الحانوت أعد لهذا الغرض

وبقى هردر وحده فى الحانوت ، فتردد طويلاً ثم تناول المسدس الذى رفضه فرانتينج وأخذ يَرُوزه فى يده(١) ، ثم وضعه ، ثم عاد فأخذه . وانفتح الباب الخلفى بغتة فذهل هردر لهذه المفاجأة فوضع المسدس فى جيب معطفه من غير قصد ولا وعى . وسأل فرانتينج أيريد رصاصا . فقال إن لديه خمساً ، لأنه لم يطلق إلا واحدة . وفى هذه الرصاصات الخمس كفاية الساعة . ثم دفع الثمن وخرج وفى يده المسدس فلم يدع لهردر وقتاً يقر فيه على قرار .

(١) راز الشئ : اختبره وقدره

وسأل جونتل الشاعر ماذا يريد . ففهم هردر من سؤاله أنه حسبه شارياً آخر اتفق دخوله الحانوت على أثر دخول فرانتينج . ورجَّح هذا الحسبان فى نفسه أنه هو وفرانتينج لم يتبادلا الخطاب منذ دخلا . فطلب إليه نوعاً من السيوف لا شفرة له ؛ وهو طلب ورد على خاطره فألقاه كما جاء . فغض ذلك من كرامة جونتل وقدح فى اختصاصه . ثم تجاذبا الحديث هنيهة واعتذر هردر اعتذار الخاطئ ، ثم انصرف انصراف اللص ، وهو يقول لنفسه إرضاء لضميره : سأعود إلى البائع فأنقده ثمن المسدس ، أو أرسل إليه حوالة بريدية غفلاً من الإمضاء . ثم اجتاز الساحة فأبصر على بعدٍ ظل فرانتينج يتسحب وحده على الرمل ، فخيل إليه أنه رآه يهز المسدس ، وأنه سمعه يطلقه . ولكن المسافة كانت بينهما بعيدة فلم يستطع أن يجزم بالأمر . وقطع فرانتينج الساحل من زاوية إلى زاوية فغاب عن بصره . فظن هردر أن صاحبه انقلب إلى (المنظر الجميل) وهو الفندق الذي لقيه أمام بابه منذ ساعة . فأخذ سمته إلى هذا الفندق . وكان فرانتينج قد أخذ المصعد الصغير ليرقى به الصخور العالية فكان يمشى

أمامه . واطلَّع هردر من إحدى النوافذ فرأى فرانتينج يدخل بهو الفندق ويجلس فى أحد المقاعد . ثم بدا له فنهض وغاب فى الدهليز . فدخل هردر من الباب في هيئة المجرم فلم يصادفه بواب ولم يقابله ساكن . حتى إذا بلغ آخر الدهليز وجد نفسه فى حجرة البلياردو . وكان الليل قد أقبل ، وموقد المصطلى تشتعل فيه نار خفيفة ، فلم تستطع أن تكسر من برد الحجرة . ومع ذلك ظلت النافذة مفتوحة جرياً على هوى الإنجليز من حبهم الهواء البارد ، وتوخيهم جانب الخشونة من العيش . وكان فرانتينج قاعداً يتأمل وظهره إلى النار ، وبنيقة معطفه إلى فوق ، وسيكارة مطفأة فى زاوية فمه . فلما أبصر هردر رفع ذقنه إليه متحدياً وقال :

— أتتبعنى إلى كل مكان ؟

فأجابه هردر على الفور بلهجته الرقيقة الوديعة :

— نعم . ولقد جئت لأتحدث إليك . ولولا أنك خرجت من الفندق ساعة دخلت لقلت لك ما لدى . ولم تكن فى طريقك على حال تسمح لى بمواضعتك الرأى[١] . ولا بد لنا من بعض الحديث

(١) مواضعة الرأى : أن يطلع كل منهما الآخر على رأيه

فإن عندى شؤوناً شتى أريد أن تقف عليها

وكان هردر هادئ النفس والصوت كدأبه ، فتقدم نحو البليارد فصده فرانتينج بإشارة من يده ، وقال له فى لهجة يظهر فيها الحنق والفتور والروية : استمع إلىّ ! إنك لا تستطيع أن تقول لى ما لا أعلمه . وإذا لم يكن من الكلام بد فأنا الذى يتكلم . فإذا فرغت من الكلام وجب عليك أن تخرج :

« إنى أعلم أن زوجتى احتجزت محلها على الباخرة (هارويش) الذاهبة إلى كوبنهاجن ، وأنها مشغولة بجواز سفرها ومتاعها . وأعلم كذلك أن لك منافع فى كوبنهاجن ، وأنك ستقضى بها نصف وقتك الثمين . وليس من همى أن أفكر فى الاقتراب منكما

كل ذلك لا يعنينى ؛ فإن (إميلى) رأتك كثيراً ، وقد رأتك فى هذين الأسبوعين أكثر . لا تظن أنى أرى فى ذلك بأساً أو مضرة ؛ فإنى أعلم أن إميلى تشكو جفاء معاملتى وسوء سلوكى . ذلك صحيح ؛ ولكنها مسألة بينها و بينى ، لا تعنيك ولا تعنى أحداً من الناس ، فاذا عجز عنها وُسْعُها لجأتْ إلى الطلاق ؛ ونجاحها فى الطلاق أمر مشكوك فيه . ولكن المرء لا يدرى ماذا تسفر

عنه هذه القوانين . وعلى أية حال ستظل إميلى زوجتى حتى يقع الطلاق . وستبقى لى عليها واجبات الزوجية ولو كنت شر الأزواج جميعاً

« ذلك رأيى أفصحت عنه . وتلك لعبة طال عليها القدم فأصبحت لا تجوز على أحد

« لقد جاءنى منها كتاب منذ قليل ، فهى إذن تعرف أين أنا ؛ وذلك يفسر لى وجودك هنا

فقال له هردر فى لهجته الهادئة : ذلك صحيح

وأخرج فرانتينج من جيبه الداخلى كتاباً ثم نشره وأخذ يقرأ بعض فقراته :

« لقد قطعت العزم على أن أفارقك . وأنا أعلم أنك تعرف الرجل الذى يبذل ما يبذل فى مساعدتى . لقد أصبح من المحال أن أعاشرك . إنك عبدتنى وبالغت فى عبادتى كما تزعم ؛ ولكننى ضقت ذرعاً بطريقتك التى تعلن بها حبك إياى . إنها طريقة تذل النفس وترمض الفؤاد . لقد قلت لك ذلك مراراً وأنا أقوله لك الساعة لآخر مرة »

— وعلى هـذا النحو من الثرثرة والهذر كل الرسالة . ثم مزقها قطعتين رمى إحداهما وبرم الأخرى ، ثم التفت إلى النار فأشعلها وأشعل منها سيكارته وقال : هاك صنيعى بهذه الرسالة . إنك تساعدها . أليس كذلك ؟ أنا لا أقول إنك تحبها أو إنها تحبك ، فليس من طبعى أن أجازف بالحكم القاسى ، وإنما أسألك إذا كنت لا تحبها فلماذا تجشم نفسك الأهوال فى سبيلها ؟ جُبْ أقطار الأرض واحمل معك المواساة للنسوة اللاتى يزعمن أنهن بائسات ، فذلك لا يشغل بالى . وكل ما أبغيه أن تقرَّ فى ذهنك أن إميلى لن تفارقنى ، فإن معها المال وليس معى شئ . فأنا أعيش حميلة على مالها كَلاًّ عليها ، فإذا تركتنى نزلت بى النازلة التى يرفضُ لها صبر الصبور .

أليست هذه الحجة سديدة للاحتفاظ بها ؟ ولكن صدقنى أو لا تصدقنى ليست هذه هى حجتى . إنها لم تَعْدُ الصواب حين قالت إنى أعبدها ؛ وتلك حجة أخرى للاحتفاظ بها ؛ ولكن ليست هذه الحجة ولا تلك مما يدخل فى منطقى . إن الزوجة فى رأيى هى الزوجة . ولا تستطيع هى بهذا الاعتبار أن

تخون عهدها بحجة أن طريقها ليست كلها وردا ، وأن حياتها ليست جميعها غبطة . لقد سمعتها تقول إنى فاحش الخلق دنس العرض ، ولكنى لست فى الغاية من الفحش والدنس ، فلا أزال أحترم ما يسمونه العلاقة الزوجية

ثم أخرج مسدسه من جيب معطفه وقال : إنك ترى هذا المسدس ، وقد رأيتنى أشتريه ، فلا بأس عليك منه . ليس فى منهجى أن أقتلك . وأعمالك لا تلفت نظرى ولا تشغل بالى . إنما يعنينى ما تعمل زوجتى . فإذا تركتنى واتبعتك أو اتبعت سواك ذهبت وراءها إلى كوبنهاجن ، أو إلى بنجكوك ، أو إلى القطب ، ثم أقتلها بمسدسي هذا .

الآن تستطيع أن تنصرف .

قال ذلك وأعاد المسدس إلى جيبه ، ثم جذب نفَساً قوياً من سيكارته وسكت

وتفرس هردر فى وجه صاحبه الكالح الشتيم المنذر ففهم أنه يفعل ما يقول . ومثل هذا الرجل الجرئ القلب لا ينكص عن غاية ولا ينكل عن جريمة . فاذا تركته إميلى فكأنها

أمضت قرار موتها بيدها

ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إميلى قررت السفر ولا بد أن تسافر . ومن الشديد على نفس هردر أن يرى هذه المرأة التى وصل الحب بين قلبها وقلبه لا تبرح تعاني ما يسومها زوجها من العذاب والمهانة . فخطا بضع خطوات بجانب البليارد ، فنهض فرانتينج يلقاه ، فأخرج هردر المسدس الذى فى جيبه وسدده إليه ثم أطلقه . فترنح فرانتينج ثم خر صريعاً ليديه على مائدة البليارد . ورنَّت الطلقة فى أذن هردر رنين الوتر إذا انقطع فجأة . ورأى ثقباً صغيراً أحمر فى صدغ فرانتينج البرنزى فقال لنفسه : كان لا بد من أن يموت أحدهما ؛ والأولى أن يكون الميت فرانتينج لا إميلى . وشعر هردر أنه أتى أمراً مشروعاً ، ولكنه أحس مع ذلك بعض الأسف على الصريع . ثم ما لبث أن أدركه الخوف . . . أدركه الخوف على نفسه ، لأنه لا يريد أن يموت ، ولا يحب أن يكون موته على المشنقة . وأدركه الخوف على إميلى ، لأنها ستصبح بعده من غير صديق ولا سند . وشق عليه أن يتصورها وحيدة فى هذا العالم عرضة للتهم الجريئة ،

وغرضاً للمطاعن البذيئة ، فرأى أن ينصرف من فوره على عجل . أيخرج من الدهليز المؤدى إلى البهو ؟ كلا . إن ذلك آخر ما يفكر فيه . إن أمامه النافذة ! فنظر هردر إلى الجثة نظرة ، ثم لمح فى الظلام الغاشى سيكارة القتيل تبص على البساط الأخضر فالتقطها وألقاها فى النار . ثم هتك طرفاً من الستار المضروب على النافذة واطّلع فرأى النور في الفناء أضوأ منه فى الحجرة . ثم لبس قفازه وألقى على الجثة النظرة الأخيرة ، وقفز من النافذة فكان فى الفناء المبلط بالقرميد . والتفت فإذا الستار قد عاد إلى حاله . ونظر حواليه فلم يجد إنسانا يدب ولا نافذة تضئ ، فاتجه نحو باب من الأبواب ودفعه فانفتح مصراعه عن طريق غير نافذ ، فارتد عنه وجال حتى اهتدى بعد لأى إلى ساحة البحرية . ثم أوحت إليه بديهته عفو الساعة أن يضلل مقتفى أثره ، فقرر أن يعود إلى الفندق من بابه العام ، فدخل اردهة على مهل وجرأة ، فرأى بواباً تلفع بالظلام فحيّاه وسأله عن غرفة خالية . فقال له : يا سيدى ، إن المدير قد سافر إلى لندن ، والوكيلة قد خرجت لبعض شأنها ولا تلبث أن تعود . فهل تتفضل بالجلوس ؟ ثم أنار

البواب البهو فدخله هردر مخطوف البصر واستوى على أحد المقاعد. ثم قال : هل أستطيع أن أشرب كأساً من الكوكتيل ريثما تجئ ؟ فأجابه البواب : تستطيع يا سيدى ولا شك . وسآتيك به أنا نفسى ، فإن الغلام المنوط بهذه الأمور لا يعمل اليوم . ثم ولى ، وخلا القاتل إلى نفسه فقال وهو يصوب نظره فى الدهليز الطويل : فندق عجيب ! أيستطيع هذا الخادم أن يديره وحده ؟ ولكن لا عجب فنحن فى فصل الكساد . ثم سأل نفسه : ليت شعرى ألم يسمع طلقة المسدس أحد ؟ ثم أخذته رغبة قوية فى الهرب ، ولكنه راجع حلمه واستعاد جأشه . ودخل البواب بالكوكتيل فتجرعه هردر ثم نقده فيه ثمانية عشر بنساً وشكره عليه . ثم قال له : أنا ذاهب الآن فى بعض أمرى وسأعود عما قليل . ثم انصرف وئيد الخطو رابط الجأش حتى غاب فى الظلام

واتكأ لوماكس هردر على حاجز الرصيف وكل ما حوله جماد وصمت ، فلا عين تراه ، ولا أذن تسمعه . ومع ذلك أجال بصره حواليه فلم يجد إلا نجوم الليل تلمع فى الفضاء ، وأضواء السفن تسطع على وجه الماء . فأخرج المسدس من جيبه وألقاه

فى اليم . ثم التفت فرأى من وراء المرفأ الصغير ذلك المدرج العجيب الذى تتألف منه المدينة الزاهرة . وسمع دقات الساعات ترن فى قباب العمائر والكنائس

إنه قاتل ، فلماذا لا ينجو بنفسه من المطاردة ؟ هل كان لقاتل آخر أن يظل على حاله الطبيعية من ثبات القلب وراحة الضمير ؟ لقد كان كل شيء على خير ما يريد أن يكون : لم يره البواب لدى دخوله الفندق أول مرة ، ولم يره عند خروجه منه بعد الجريمة ؛ كذلك لم يترك من ورائه أثراً يدل عليه ، لا فى حجرة البليارد ، ولا على متكأ النافذة ، ولا فوق بلاط الفناء . ولكن هناك فرضاً واحداً ، هو أن يكون أحد الناس رآه وهو يتسلق النافذة . ذلك فرض بعيد ، ولكنه على أى حال ممكن . ولم لا يكون بعض ما يعرفون فرانتيج قد رآه وهو يسير معه فى الطريق فيخبر بذلك الشرطة ؟ كذلك هذا الفرض لا يؤدى إلى نتيجة ؛ فان منظر هردر ليس فيه ما يسترعى الملاحظة العرضية إلا جبهته الضخمة وهى مستورة بقبعته . إن القاتل يرتكب فى العادة أمراً لا يخلو من إنكار العقل ، ولكن هردر لا يجد

فيما ارتكب مخالفة لعقله ولا إساءة إلى ضميره . وكل ما شعر به بعد أن قتل فرانتينج أنه آسف على أن دفعته الظروف إلى هذه الغاية

كان من المقضيّ على أحدهما أن يموت . فهل يرفض العقل السليم أن يموت رجل غليظ القلب فظ الطباع ، وتحيا امرأة لطيفة الروح رقيقة الشمائل ؟ لقد شغف قلبه الحب الخالص لإميلى ، فهو لا ينكل عن قتل مائة رجل إذا كدروا عليها صفو الحياة . وهو جميل النية فلا يبغى على إخلاصه لها ودفاعه عنها جزاء ولا شكراً . ولما تذكر ما صنع فرانتينج بكتابها حين مزقه وأحرقه وأشعل من ناره سيكارته ، ثار الدم فى وجهه من الغضب

ودقت إحدى الساعات دقة الربع فاتجه مسرعاً إلى الرصيف واستقل سيارة إلى المحطة . ووسوس إليه الخوف أن رجال الشرطة يراقبون المسافرين ، ولعلهم يكشفون الجريمة . وخيل إليه أن السائق ينظر إليه نظرات غريبة مريبة ، ولكنه صرف عن نفسه هذه الوساوس وتقدم إلى مراقب التذاكر فأراه تذكرة

الاياب ؛ ثم صعد فى عربة بولمان وتحرك القطار . فلما بلغ محطة فكتوريا ساوره شيء من الخوف والقلق ، فقد وقع فى حسبانه أن البوليس السرى ربما تلقى خبر الجريمة عن طريق البرق فهو يترقبه

كان القطار القائم من « فكتوريا ستريت » إلى « هرويش ماريتيم » غاصا بالناس من كل طبقة ، فعلم هردر من سقاط الأحاديث أن مؤتمرا دولياً سيعقد فى كوبنهاجن ، فمن العبث البحث عن إميلى فى هرج القطار وفوضى الركب . وظل القاتل فى أثناء الساعتين اللتين قضاهما فى القطار مثارا للخواطر السود والوساوس القاتلة ، وقد ذكر أنه نسى قطعة من الرسالة على مائدة البليارد فعجب من غفلته

كان رصيف الباخرة فى المرفأ يمور بالناس موران البحر فى يوم عاصف ، وكان هردر من شدة الزحام لا يمشى ، وإنما يسير محمولا مدفوعاً حتى بلغ الباخرة على شيء من هدوء النفس ، لأن زحمة المرفأ على هذا النحو تجعل رقابة البوليس السرى مستحيلة

صفرت الباخرة وفصلت عن الرصيف ، ومخرت العباب فى

بحر الشمال ، وغدت إنجلترا صفاً من النور على طول الساحل ، فطفق هردر يبحث عن إميلى فى المركب من المقدمة إلى المؤخرة فلم يجدها . فظل نهاره متلدداً يتحسر من الهم ويتضور من القلق وأخيراً تلاقيا . فقد كانت هى أيضاً تبحث عنه . وكان هذا اللقاء المرجو برداً على فؤاده وسلاماً لنفسه ، لقد كان لها كل شئ فى الحياة ، فأخذ يدها اليمنى وجعلها فى يديه ، ثم جعل يتأملها فى ضوء النجوم وفى نور القمر وفى لألاء المصابيح . وكانت إميلى واحدة النساء فى السذاجة والرزانة والأمانة والعفة ؛ حُسْنها قَيْدُ النواظر ، ووجهها الحزين السعيد بهجة الخواطر ، وشبابها الغض متعة الأنفس . قصت على هردر ما فعلت ، وقص عليها هردر ما فعل ، ثم قالت : وبعد فقال لها : لم أستطيع الذهاب إلى هناك ، فقد ظننت أن هذا أفضل ، وأعتقد أن ذلك لم يكن فيه غناء ولا نفع

لم يكن فى نية هردر أن يكذِبها !لخبر . ولكن ماذا عسى أن يقول غير ذلك فى مثل هذا الموقف ؟ لقد كذب مرة لئلا يكذب عشرين ، وآثر أن يخدعها بالباطل على أن يفجعها بالحقيقة ؛

فوافقته على قوله ، وشايعته على رأيه ، وقالت وهى تفتر عن ابتسامة ملائكية : الحق معك ، ونِعِمَّا فعلت !

* * *

كان مدير الشرطة ورجل من رجال الخفية واقفين فى حجرة البليارد فى فندق (المنظر الجميل) ، وكانت أضواء المصابيح القوية تنير البساط الأخضر وتسطع على جثة فرانتينج الهامدة ؛ وكانت امرأة من خادمات البيت تنصرف بعد أن سألها رجلا الشرطة ؛ وكان يدخل الحجرة ساعة انصرافها رجل ضخم الجثة ، فحيا الشرطيين وأغلق الباب ثم قال :

أنا نازلٌ على صديقى الدكتور فورنفال ، وقد طلبتموه بالتليفون وهو يعالج حالة من الحالات الدقيقة المخطرة ، فأردت أن أحل محله فيما تريدون . ولعلى رأيتك يا سيدى المأمور فى (اسكتلنديارد) . فقال المأمور : الدكتور أوستن بوند ؟ أهلاً وسهلاً !

وتصافح المأمور والدكتور مصافحة الاحترام والود . وسمع

رجل الخفية اسم رجل البوليس السرى الهاوى فارتعد إجلالاً ورهبة ، لأنه يعلم أن عبقريته نادرة فى كشف الجرائم وتحقيق الحوادث ، وقد استفاضت شهرته بعد أن حل رموز « القبعة الصفراء » ، والملعقة الذهبية ، الخ

قال الدكتور أوستن بوند بعد فحص سريع : أجل ! إن المسكين قتل منذ تسعين دقيقة ؛ فمن الذى اكتشفه ؟

— هذه المرأة التى خرجت منذ هنيهة

— ومتى كان هذا ؟

— منذ ساعة

— هل وجدتم الرصاصة ؟

— ها هى ذى . .

فأخذها الدكتور وفحصها ثم قال : آه ! آه ! إنها ناتئة . . . مسطحة . . . كالعادة

وقال المأمور للشرطى : ادع من ينقل الجثة فقد فرغ من فحصها الدكتور

وكان الدكتور حينئذ أمام المدفأة فقال : إن القتيل كان يدخن سيكارة . فقال له المأمور : هو أو القاتل ؟ فقال : هل اقتفيتم

الأثر ؟ فقال المأمور فى شئ من الزهو : نعم . وطلب من البوليس السرى مصباح الجيب ، ثم دنا من النافذة وأرى الدكتور بصمات الأصابع على الزجاج ، وآثار الأقدام على الحافة ، ومزقاً صغيرة من نسيج غليظ أزرق . فأخرج الدكتور مجهراً جميلا وأخذ يفحص هذه المخلفات بعناية ودقة . وقال المأمور بلهجة التأكيد : إن القاتل لا بد أن يكون طويل القامة : يظهر ذلك من زاوية الإطلاق . وقد كان يرتدى حلةً كاملةً فيها فتق صغير . وكانت فردة حذائه اليسرى مثقوبة ، ويده اليسرى ذات ثلاث أصابع . ولا بد أن يكون قد دخل الغرفة من النافذة ثم خرج منها ما دام البواب يؤكد أن أحداً لم يدخل الفندق غير القتيل فى الساعة التى حدث فيها القتل . ومضى المأمور يثرثر بمثل هذه التفاصيل حتى قال إنه أعطى المختصين صورة القاتل كاملة . فعقب الدكتور على رأيه بقوله : إن من أغرب الأمور أن رجلاً كجون فرانتينج يترك رجلا يقتحم عليه الحجرة من النافذة ، وعلى الأخص إذا كان هذا الرجل رث الثياب . فقال له المأمور : إنك إذاً تعرف القتيل حق المعرفة . فقال الدكتور : كلا ، وإنما علمت أن اسمه جون فرانتينج . . .

أمر المأمور الجندى باستدعاء البواب ، وأخذ الدكتور يفحص الحجرة : يبحث فى كل زاوية ، ويتفرس فى كل شئ ، فوقع بصره على قصاصة ورق فى بعض الحنايا فالتقطها ونظر فيها بعين فارغة ثم ألقاها . وجئ بالبواب فسأله المأمور : كيف تؤكد أن إنساناً لم يدخل هذه الحجرة بعد الظهر ؟ فقال له البواب : لأنني لم أترك مكانى لحظة . وكان البواب كاذباً ، لأن الإدارة آخذته بغيابه البارحة من غير إذن ، فهو يدافع بالكذب عن نفسه

— وهل تستطيع وأنت فى مكانك أن ترى البهو كله ؟ فقال الدكتور بوند : كان يستطيع أن يكون هنا قبلا . فاعترض المأمور قائلا : إن الخادمة جاءت هنا مرتين إحداها قبل أن يجئ فرانتينج ، وكانت النار توشك أن تخبو ؛ فلما عادت بالوقود راعها منظر فرانتينج فانكفأت عنه مولية . فرغب الدكتور أن يكلم هذه المرأة كلمتين . فتردد المأمور ، وساءه أن يدخل بوليس هاو فيما لا يعنيه . ولكنه على الرغم من ذلك دعا المرأة . فسألها الدكتور : هل غسلت اليوم هذه النافذة ؟ فأجابته : نعم . فقال أرينى يدك اليسرى . فأرته إياها . فسألها فى أى حادث فقدت

هاتين الإصبعين ؟ فأجابته فى حادث اصطدام . فأمرها أن تدنو من النافذة وأن تضع كفيها على الزجاج بعد أن تخلع حذاءها الأيسر . فشهقت المرأة بالبكاء . فطمأنها الدكتور وسألها هل فى بعض ثيابها فتوق ؟ فأجابت نعم . ثم انصرفت وفى يدها حذاؤها .

وأقبل الدكتور على المأمور يقول له : لقد لاحظت وأنا داخل أن يدها مبتورة الإصبعين . ويحزننى أن يحبط عملك ، ولكنى علمت علم اليقين أن القاتل لم يدخل من النافذة ولم يخرج منها . فسأله المأمور وكيف كان ذلك ؟ فقال إن القاتل لم يغادر الحجرة . فدارت عيون الشرطيين فى الحجرة يبحثان عنه . ولكن الدكتور أشار بيده إلى الجثة وقال : إن القتيل هو القاتل . فقال المأمور وأين أخفى المسدس إذا كان قد انتحر ؟ فقال الدكتور ذلك ما أبحث عنه . ومن أخطر الأمور أن يلمس أحد جثة المقتول قبل أن يحضر رجال الفن . أنظر إلى جيب المعطف الأيسر ! ألا تراه منتفخاً كأن به شيئاً غير عادى ؟ ابحث فيه . فبحث المأمور فأخرج منه المسدس . فزُهى الدكتور وقال : هذا هو ! ثلاث رصاصات أطلقت . فليت شعرى أين أطلق الأخريين ؟

أين الرصاصة التى وجدناها ؟ أنظر ! إنه أطلق النار فاسترخت ذرعاه فسقط المسدس فجأة فى جيبه

فقال المأمور متهكماً : وهل أطلق بيده اليسرى ؟ فقال له ولم لا ؟ لقد ظل فرانتينج اثنتى عشرة سنة وهو بطل انجلترا الهاوى فى الوزن الخفيف . ومرجع فوزه إلى أنه كان يضلل خصمه لأنه أعسر . وقد رأيته بعينى رأسى مراراً وهو يلاكم . قال الدكتور ذلك واتجه إلى المنصة فالتقط قصاصة الورق وقال : إنها كانت ولا بد عند المدفأة ، فلما فتح الباب أطارها الهواء إلى هذا الموضع . إنها شطر من رسالة ، ولا بد أن يكون الشطر الآخر محروقاً فى الموقد . لقد أشعل به سيكارته . أنظر ! إنها ثرثرة المحتضر . . . هى هذيانه الأخير ! إقرأ : فقرأ المأمور « ... أكرر أنى على يقين من حبك إياى ، ولكنك قتلت فى قلبى محبتى إياك . وغداً سأترك المنزل ؛ وذلك فراق الأبد » (!)

وبعد أن أثبت الدكتور أوستن بوند بطريقته الخاصة وأدلته القاطعة أن رجال البوليس السرى لا يعلون فى الذكاء على

الحمير ، ألقى التحية على المأمور ، وأومأ برأسه إلى الشرطى ، وخرج منصوراً فخورا !

* * *

كانت إميلى جالسة صباح ذلك اليوم فى ردهة (البلاس أوتيل) فى كوبنهاجن حين أقبل عليها لوماكس هردر وفى يده صحيفة إنجليزية ، فقرأ عليها تفاصيل التحقيق وقرار المحكمين بأن فرانتينج قضى منتحراً . فنال من المرأة الشابة هذا الخبر فبكت زوجها أحر بكاء . ونظر إليها هردر نظر الحنان والعطف وقال فى نفسه : إن الزمن بلسم الفؤاد الجريح . أما أنا فقد أُكرهت على ما فعلت . وسيكون هذا السر بينى وبين نفسى حتى ألقى الله

النجوم

قصة راع من رعاة الغنم

للقصصي الفرنسي الفونس دوديه

كنت وأنا أرعى الغنم على شعاف اللوبرون أقضى الأسابيع الطوال لا أسمع صوتاً بهتف ولا أرى قدماً تسعى . فأنا وحدي أعيش فى المرعى القفر لا أجد بجانبي غير كلبى ، ولا أنظر أمامى غير قطيعى ، اللهم إلا ناسك (مُندلور) فقد كان يمر من حين إلى حين بهذا المكان وهو يبحث عن الأعشاب الطبية فى الجبل ، وإلا بعض الفحامين من أهل (بيمون) ألمح وجوههم السود وهم يمرون من بعيد . ولكن هؤلاء الناس قد فقدوا الرغبة فى الكلام لطول العزلة فأصيبوا بداء الصمت ، وجهلوا تصاريف العيش وأقاويل الناس فى القرى والمدن فغلبت عليهم السذاجة .

كذلك كنت أسمع فى كل أسبوعين جلاجل بغلنا وهو يصعد فى حَدور الجبل حاملاً إلىَّ زاد نصف الشهر ، فأنظر إليه وهو يلوح من فوق المنحدر شيئاً فشيئاً ، وقد نتأ على ظهره رأس فلاح المزرعة الشاب أو قناع العمة (نوراد) الشيخة . حقاً لقد كنت سعيداً ! كنت أطلب إليه أو إليها أن يقص علىَّ

أنباء الناس فى السهل من حفلات التعميد ومهرجانات الزواج ؛ ولـكن الشئ الذى كان يثير شوقى ويستبد بهواى ، هو أن ينعطف الحديث ويستفيض إلى حال ابنة سيـدى الآنسة « اصطيفانيت » وهى أجمل فتاة فى الفراسخ العشرة التى تحيط بهذه البقعة .

كنت أسأل وأنا أخفى مظاهر الاهتمام : هل تذهب غالباً إلى الحفلات والصالونات ؟ وهل يتقدم إليهـا كثير من الشباب الظرفاء ؟ ولئن سألنى سائل ماذا تَرُدُّ عليك هذه الأنباء وأنت الراعى الفقير الحقير ، لأقولن له إننى كنت قد بلغت سن العشرين وكانت هـذه الآنسة هى كل ما رأيت وعلمت فى حيـاتى من الجمال والحسن .

وفى ذات أحد من الآحاد كنت أنتظر زاد الأسبوعين ، فلم يصل فى موعده . فحملت تأخره فى الصباح على حفلة القدَّاس ؛ ولما متع النهار وثارت العاصفة عزوته إلى أن البغل لم يستطع السير لرداءة الجو ووحل الطريق . ثم اقتربت الساعة الثالثة ، فصَحت السماء ، والتمع الجبل بالشمس والماء ، فسمعت من خلال

رفيف (١) الأشجار وخرير الجداول صوت الجلاجل فى عنق البغل وهو فى بهجة جرسه وحدة رنينه أشبه بإيقاع الأجراس فى عيد الفصح . ولكن الذي كان يقوده فى هذه المرة لم يكن فلاح المزرعة ولا العمة نوراد ؛ إنما كان ... إحزَرْ مَن ؟ كان الذى يقوده آنستنا بنفسها . . . آنستنا بشخصها . . . استوت على صهوته فى اعتدال بين جنيبتيه (٢) ، وقد تورد خداها من هواء الجبل وطراءة الجو بعد العاصفة

وقفت اصطفانيت الجميلة مطيتَها على باب الحظيرة ، ثم قالت وهى تترجل : إن الفتى مريض ، والعمة نوراد فى عطلة عند أولادها ؛ وإن الذى عوقها هو ضلالها فى شعاب الطريق

ولكن الذى يراها فى زينة يوم الأحد بشريطها المكلل بالزهر ، ونطاقها المضمخ بالعطر ، وفستانها المجمل بالمخرَّم ، يظنها لجمال هنداماها وحسن شارتها قد أضاعت وقتها فى مراقصة الرجال ، لا فى تلمس طريقها بين الأدغال

---

(١) رف الشجر : تقاطر من أوراقه الندى أو الماء

(٢) جنيبتا البعير والبغل ما يحمل على جنبيه

يا المخلوقة الظريفة ! إن عيني كانتا تحملقان إليها فى غير فتور ولا ملل . كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها اصطفانيت من قرب . فما كنت أراها إلا فى الشتاء حينما أهبط السهل بالقطعان ، وأرجع إلى الضيعة فى المساء لتناول العشاء ! كنت ألمحها أحياناً تجتاز الردهة فى خفة الغزالة لا تعوج على شئ ولا تتحدث إلى خادم . وكانت دائماً على أتم ما تكون الفتاة من الزينة ، وعلى أقل ما تُظهر الجميلة من الزهو . أما الآن فهى لى وأمامى ولأجلى ؛ أرنو إليها بمجامع عينى ، ولا يحول شئ بينها وبينى ! أليس ذلك مما يُزْهف الفؤاد ويُذهب الوعى ؟

أخرجت اصطفانيت الزاد من السلتين ثم أخذت تنظر إلى ما حواليها نظرة استطلاع وشوق . ثم شمرت ثوبها الأنيق قليلاً مخافة أن يبتل ، ودخلت الحظيرة تريد أن ترى الركن الذى أنام فيه ، ومذود القش الذى أرقد عليه ، ومعطفى المعلق على الحائط ، ثم عصاى وزنادى الموضوعين على الأرض ، فوجدت فى كل أولئك مبعثاً للهو وسبيلاً إلى الفرجة

قالت الآنسة الجميلة : إذن أنت تعيش هنا يا راعىَّ المسكين !

لا ريب أنك تضجر من المقام لطول الوحدة وضيق العزلة ، قل لى ماذا تصنع وفيم تفكر ؟

فقام بنفسى أن أجيبها : « فيك يا سيدتى » ؟ وما كنت أكذب بهذا الجواب على نفسى ، ولكننى كنت من اضطراب النفس بحيث لا أجد كلمة تقال ولا جواباً يُغنى

وأعتقد أنها لاحظت علىَّ ذلك الاضطراب ، فوجدت الخبيثة سرور قلبها فى أن تضاعف ربكتى بأسئلتها العابثة ، قالت :

— وصديقتك الطيبة يا راعىَّ ؟ أما تصعد الجبل لتراك من حين إلى حين ؟ لا بد أن تكون هى المعزة الذهبية أو الحورية (إستيريل) التى لا تركض إلا على رؤوس الجبال

كانت اصطفانيت نفسها وهى تتحدث إلىَّ أشبه الناس بالحورية إستيريل فى جمال ضحكتها ورأسها مائل إلى الخلف ، وفى سرعةِ عودتها سرعة جعلت ظهورها أشبه بالرؤيا

— أستودعك الله يا راعىَّ !

— وأنت فى أمان الله يا سيدتى

ثم ألقت على البغل سلالها الفارغة وانصرفت . فلما غيّبها الطريق المنحدر كان يخيل إلى أن الحصى الذى كان يتطاير من حوافر البغل يقع على فؤادى حصاة حصاة ؛ وقد بقى وقعه فى أذنى طويلاً ، طويلاً . وظللت بقية النهار كالوسنان لا أجرؤ على الحركة مخافة أن يتبدد هذا الحلم

فلما تضيفت الشمس للغروب ، وأخذت بطون الأودية تزرقّ لدنو المساء ، والأغنام الشاغية يتضام بعضها إلى بعض لتدخل الحظيرة ، سمعت صوتاً يهتف بى من المنحدر ، ورأيت فتاتنا ترجع لا متهللة ولا متدللة كما كان يظهر عليها منذ هنيهة ، ولكنها كانت ترتجف من الخوف وترتعش من البلل

والظاهر أنها حين بلغت أسفل الجبل رأت نهير (السرج) قد طما وفاض بعد المطر ، فأرادت أن تغامر فى عبوره فأشفقت بها المغامرة على الغرق

وأفظع ما فى الأمر أنها فى هذه الساعة من الليل لا تستطيع أن تفكر فى العودة إلى الضيعة لأنها وحدها لا تتبين معالم الطريق

ولا تأمن عوارضه ، وأنا لا أستطيع أن أترك القطيع لأبلغ بها موضع الأمن . والتفكير فى أنها ستقضى ليلتها على الجبل فى هذا المكان يُمضُّ قلبها بالهمّ ويقضُّ جنبها بالقلق ، لأن أهلها على الأخص سيبيتون من الإشفاق والخوف على غير قرار ولا سكينة .

فسكَّنت رَوْعها وأزلت خوفها وقلت لها :

— لا بأس عليك ! إن ليالى يوليو قصار يا سيدتى . وليس فى الأمر على سوئه ما تخشى عواقبه . والهم ساعة ثم ينقضى !

ثم أسرعت فأوقدت النار بالحطب الجزل لتجفف عليها قدميها وثوبها ، فقد كان لا يزال يرف من ماء النهر . ثم وضعت بين يديها شيئاً من اللبن والجبن وعزمت عليها أن تأكل ؛ ولكن الصغيرة المسكينة ما كانت تفكر فى طعام ولا دفء . وغلبها الأمر على العزاء فاستكانت للعبرة . وهاج ذلك من نفسى فدمعت عيناى أنا أيضاً

✿ ✿ ✿

على أن الليل كان قد غشى الأرض ، فلم يبق إلا غبار من الشمس على شعاف الجبل ، أو بخار من الضوء على حواشى المغرب . فطلبتُ إلى الآنسة أن تدخل الحظيرة لتستريح وتغفو ، و بسطت لها فروة جديدة من جلود الخراف على فراش من القش الطرى الوثير ، ثم تمنيت لها ليلة سعيدة ونومة هنيئة ، وخرجت فجلست أمام الباب

شهد الله أننى على الرغم من نار الحب التى كانت تحرق دمى وتلذع شَغاف قلبى لم يَرد على فكرى خاطر سوء ، ولم تقم بنفسي رغبة منكرة . اللهم إلا نخوة شديدة فيها الكبر وفيها الفخر ، لأن فى زاوية من زوايا الحظيرة ، وعلى مقربة من القطيع المستطلع ترقد ابنة سيدى فى رعايتى وحمايتى ، كأنها نعجة لم يخلق الله فى قطعان الأرض أغلى منها قيمة ولا أنصع منها بَشرة !

أبداً لم أر السماء فى مثل هذا العمق ، ولم أشاهد النجوم على مثل هذا البهاء . كل شىء فى الكون مما حوالى قد تغير فى نفسى وفى عينى هذه الليلة !

كان بصرى يجول فى رقيع الجلَد (١) ، وفكرى يسبح فى أجواء الخيال ، وإذا باب الحظيرة يفتح والآنسة الجميلة تخرج ! نبا بها الفراش فلم تكتحل عيناها بنوم ! لان الغنم كانت تحدث فى القش خشخشة وهى تتحرك ، أو تردد الثغاء وهى تحلم ، فامتنع عليها الرقاد فآثرت أن تكون بجانب النار . فلما رأيت ذلك منها طرحت على كتفيها فروتى ثم أرّثت النار (٢) وهيجتُ اللهب وجلسنا نصطليها جنباً إلى جنب ، لا ننبس بكلمة ولا نهمُّ بحديث

* * *

لو كنتَ قضيتَ ليلة فى العراء تحت النجوم لعرفتَ أن عالماً خفيًا يستيقظ فى الوحدة والسكون حين يرقد الناس وتسكن الجوارح ، حينئذ ترسل الينابيع شدوها الواضح ، وتشعل الغدران ألمابها الصغيرة ، وتذهب الأرواح وتجىء حرة ظليقة ، وتشعر أن فى الهواء حفيفاً لا يكاد يُحس ، وجَرْساً لا يكاد يدرك ، فيخيل إليك أنك تسمع الغصون تنمو والأعشاب تنبت

إن النهار معاش كل حى ؛ أما الليل فمعاش كل شىء . ومن

---

(١) رقيع الجلد : وجه السماء أرث النار : سعرها وأضرمها

ومن لم يتعود هذه الظواهر أحس لها رهبة وأوجس منها خيفة . لذلك كانت فتاتنا ترتعد من الخوف ، وتميل علىّ وتلتصق بى كلما طار إلى أذنيها صوت أو حركة . وعلى حين بغتة ارتفع إلى أسماعنا من الغدير البراق صوت طويل شجي متموج ، وفى اللحظة نفسها انسابت فى أجواز الفضاء نجمة جميلة فسامتت رأسينا ، ثم هوت فى اتجاه الصوت كأنما كانت هذه الأنة التى سمعناها تحمل معها هذا الضوء الذى رأيناه

فسألت اصطفانيت فى صوت خافت :

— ما هذا ؟

فأجبتها : هذه روح تدخل الجنة يا سيدتى . ثم رسمت بيدى على صدرى علامة الصليب

فصلّبت هى أيضاً ، ومكثت برهة مرفوعة الرأس مشدوهة الفكر متزايلة المشاعر ثم قالت :

أحقّ أنكم يا معشر الرعاة سحرة ؟

فقلت لها : كلا يا آنستى ؛ ولكننا فى الجبل نعيش على مقربة من الكواكب ، فنحن نعلم من أمرها وسرها ما لا يعلمه

سكان السهول

وكانت لا تزال تنظر فى النجوم وقد اعتمد رأسها على كفها واتشحت بجلد الخروف ، فبدت كأنها راع سماوى صغير ، ثم قالت فى لهجة الإعجاب والعجب :

— ما أكثر النجوم وما أجملها ! أبداً ما رأيتها على هذه الكثرة وفى هذا الجمال ! هل تعرف أسماءها أيها الراعى ؟

أجل يا سيدتى . أنظرى ! إن فوقنا تماماً « طريق القديس جاك » (يريد المجرة) إنه يسير من فرنسا قُدُماً إلى أسبانيا . خطه القديس جاك دغاليسيا للبطل شرلمان ليدله به على الطريق الواضح فى حروبه الشعواء مع العرب . وعلى بعد منه ترين « مركبة الأرواح » (الدب الأكبر) بمحاورها الأربعة المشرقة ؛ فالنجوم الثلاث اللاتى يسرن فى المقدمة هن الخيول ، وهذه النجمة الصغيرة التى ترينها تلقاء النجمة الثالثة هى السائق . أترين ذلك الوابل من النجوم الذى يتساقط من حولها ؟ تلك هى الأرواح التى لا يريدها الله فى ملكوته

وأدنى من ذلك قليلا تبصرين « مشط البستانى » أو الملوك

الثلاثة (الجوزاء) ! تلك ساعتنا معشر الرعاة نُوقِّتُ بها حركات الفلك ؛ فما هو إلا أن أنظر إليها كما أنظر الآن حتى أعرف أن الليل قد انتصف ، وأن نصفه الأول قد مضى . وأدنى من ذلك قليلا نحو الجنوب يلمع « جان دى ميلان » وهو شعلة الأجرام الفلكية (الأبرق)(١) . وإليك ما يزعمه الرعاة عن هذا النجم : يزعمون أن (جان دى ميلان) هو و (الملوك الثلاثة) و (قفص الفراريج) « الثريا » كانوا مدعوين ذات ليلة إلى عُرس نجمة من النجوم الصديقة ، وكان « قفص الفراريج » مُعْجلاً فسار أول المدعوين واتخذ الطريق الأعلى . أنظرى هناك تجديه فى أقصي السماء . وقطع « الملوك الثلاثة » الطريق من أسفل فلحقوا به . أما الكسول النؤوم « جان دى ميلان » فقد قعد به كسله ونومه عن اللحاق فظل فى المؤخرة . وثارت به الحمية فرماهم بعصاه يريد أن يقفهم بها . ومن ذلك سُمى « الملوك الثلاثة » عصا « جان دى ميلان » أيضاً

على أن أجمل الكواكب جمعاء إنما هو كوكبنا يا سيدتى :

---

(١) من نجوم الشعرى اليمانية

كوكب الراعى ، ذلك الذى يضئ لنـا فى الفجر حينما نغـدو بالقطيع إلى المرعى ، وفى الغروب حينما نروح به إلى الحظـيرة . وإنا لنسميه أيضاً (ماجلون) ماجلون الجميـلة التى تجرى وراء « بيير دبروفنس » (زحل) ، ثم تتروج منه كل سبـع سنين . فقالت الجميلة :

— كيف أيها الراعى ؟ وهل بين النجوم زواج ؟

— نعم يا سيدتى ولا ريب

وأخذت أشرح لها كيف يكون زواج النجوم وقران الـكواكب ؛ ولـكنى أحسست شيئاً نديًا رقيقاً يقع على كتفى فى لين ورفق ، ذلك كان رأسها الجميل أماله خَدَرُ النعاس . فاستلقى على فى تـكسر قليل جميل نال الشريط المزدهر والمخرَّم المـكوى والشعر المموَّج . وباتت هـكذا لا تفيق ولا تتحرك حتى شحب وجه السماء ، وذوى روض النجوم ، وغرقت هوادى الليل فى ضوء الصباح المنتشر . وكنت أرامقها وهى فى حضن الـكرى وفي أعمـاق نفسى ثورة ، وفى صميم قلبى اضطراب . ولـكننى كنت فى حمى هذا الليل السافر الباهر لا أهم بسوء ولا أفـكر فى ريبة

ولا أخطِر ببالى غير الخواطر الجميلة . وكانت الكواكب من حولنا ومن فوقنا تواصل سيرها الذلول الصامت كأنها القطيع الوديع الضخم ، وقد تمثل فى نفسى لحظة من اللحظات أن نجمة من هاتيك النجوم هى أجملها رُواء وأبهرها ضياء قد ضلت طريقها فأقبلت علىّ واستلقت على كتفىّ لتنام !



قصائد وصور
للامرتين ولغيره

البحيرة

نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة فى بحيرة بورجيه من سفوا ، وقد وفد على إكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم جوليا إليها (*) ، وجوليا يؤمئذ كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداءه ولم تستطيع لقاءه ، فزفر لامرتين هذه الزفرة، وأرسل هذه العبرة، من صدر مكروب وعين قريحة . ثم عاد إلى (ميلى) شارد اللب مضطرم الجوانح ، وهذه هى :

أهكذا قضى الله أن نمخر فى عباب الحياة مدفوعين فى ظلام الأبد من شاطئ إلى شاطئ ، دون أن نملك الرجوع إلى ملجأ ، أو الرسو ذات يوم على مرفأ ؟

* * *

أنظرى أيتها البحيرة ! ها هو ذا العام قد كاد يشارف تمامه ، وأنا وحدى بجانب أمواجك الحبيبة أرتقب عبثاً عودة جوليا إليها ، جالساً فوق الصخرة التى كنت ترينها جالسة عليها !

* * *

(*) بطلة قصة رفائيل

كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق هذه الصخور المعلقة ، وتتكسر أواذيك (١) على جوانبها الممزقة ، ويقذف هواؤك الزبد على قدميها المعبودتين.

* * *

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك بين الماء والسماء نجدف فى سكون وصمت ، وقد ضرب الله على آذان الطبيعة ، وختم على أفواه الخليقة ، فلا نحس حركة ولا نسمع ركزاً غير إيقاع المجاديف على أنغام الموج ؟

* * *

وإذا بصوت لا عهد للآذان بمثله ينبعث من ضفتك الجميلة ، فشق حجاب السكون ، وأطلق لسان الصدى . وهناك أنصت الموج ، وأصغى الهواء ، وأخذ هذا الصوت الحبيب إلى يساقط هذه الكلمات :

* * *

« أيتها الأرض قفى دورانك ! وأنت أيتها

---

(١) الأواذى : الأمواج (٢) الركز الصوت الخفى.

الساعات قفى جريانك ! ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجمل أيام شبابنا

✡ ✡ ✡

« إن كثيرا من صرعى الحياة وفرائس البؤس يتضرعون إليك أن تسرعى بهم ، لتخففى من كربهم ، فاستجيبي إليهم ، وكرى مسرعة عليهم ، وخذى مع عمرهم الذاهب ، ألم عذابهم الواصب ، واتركى السعداء والناعمين غارِّين فى غفلات العيش وظلال الأمن !

✡ ✡ ✡

« على أننى واويلتاه كلما لججت فى الطلب ، لج الزمان فى الهرب ، فأنا أتمنى عليه المنى فلا تحقق ، وأستزيده البرهة اليسيرة فلا أوفق ، فسألت هذه الليلة أن تكون أطول وأمهل ، ولكن السُّؤل خاب ، وبازىَ الصبح قد افترس غراب الليل !

✡ ✡ ✡

« فلنتساق إذن كؤوس الهوى دهاقاً ؛ ولنقض مآربنا عجالا ؛ فليس لسفينة الإنسان مرفأ ، ولا لخضم الزمان ساحل: إن الزمان ليتدفق ، و إنا مع تياره نمر ونمضى !

* * *

« أيها الزمن الحاقد الحاسد ! أ كذلك قضيت أن تمضى لحظات الأنس وسكرات الحب سراعا كما تمضى أيام الشقاء والبؤس !

* * *

« ويلك ! أما نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ونلمح أنوارها ؟ وكيف ؟ أتراها قد ذهبت إلى غير رجعة ؛ وماتت إلى غير بعث ؟ واويلتاه ! هل انقضى كل شئ ؟ وهل الزمن الذى منحها وأعطاها ، والذى طمسها وعفّاها ، لا يردها ثانية علينا ؟

* * *

« حدثنى أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها الماضى !

أيها الغور العميق ! ماذا تصنع بهذه الأيام التى تغيبها فى أحشائك ، وتطويها فى أثنائك ؟ أما ترجع إلينا ما سلبتنا من سكرات نبيلة ، ومسرات جميلة ؟

* * *

« أيتها البحيرة الصاخبة ! أيتها الصخور الصامتة ! أيتها الغيران الموحشة ! أيتها الغابات المظلمة ! أنتن اللاتى يُبقى عليهن الدهر ، فيجدُّهن بعد البلى ، ويخصبهن بعد المحْل ! فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة على الأقل بذكراها ؛ وانطوين على شـــذا أرجها وطيب رياها !

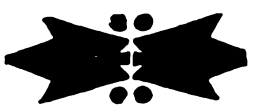
* * *

« لتبق ذكراها أيتها البحيرة في هدوئك الشامل ، وعواصفك الهوج ، وهضابك الضحوك ! لتبق فى هذا الصنوبر الذاهب فى السماء ، وفى وعر الصخور المعلقة فوق الماء ! لتبق فى النسيم العابث بوجهك ، وفى الهدير المردد بين ضفافك ، وفى الكوكب

الفضى يضئ سطحك بأنواره الرخية الزهية !

* * *

وليقل الهواء الذى يصفر ، والقصب الذى يزفر ، والنسيم المعطر الذى يضوع ! ليقل كل ما نرى وما نسمع وما نتنسم : « لقد كانا عاشقين ! »



الوحدة

استسلم لامرتين بعد فجيعته فى حبيبته إلى الهم ، واستأنس بالوحدة ، واستكان للعبرة ، وخلا إلى الحزن فى خلوات (ميلى) ، ومن هناك بعث إلى صديقه (فريو) بهذه القصيدة فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨١٨ وهى : »

جلست محزون القلب مستطار اللب على قلة (١) الجبل ، وتحت ظُلّة السنديانة العتيقة ، أشيع شمس النهار وهى تغرب ، وأسرِّح بصرى فى وجوه السهل وهى تتغير :

* * *

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش الزبد ، ينساب فى جوف الوادى ، ثم يضل فى ظلام البعد ! وهناك البحيرة راكدة السطح ، راقدة الماء ، تتراءى فى جوانبها نجوم الليل !

* * *

والطَّفَل (٢) لا يزال يلقى على رؤوس الجبال الشجراء وَمْضا من شعاعه ، وملك الليل (٣) قد أخذ يصعد إلى عرش السماء فى محفته الندية ، فأشرقت

---

(١) قلة الجبل : قنه (٢) الطفل قبيل الغروب

(٣) ملك الليل : القمر

جوانب الأرض ، وازدهرت حواشى الأفق

* * *

وناقوس الكنيسة الغوطى هبَّ يقرع الهواء برنينه الديني ، فكف الفلاح عن العمل ، ووقف السائر عن المسير ، واختلطت هذه الأرانين المقدسة بما بقى من ضوضاء النهار وصخبه !

* * *

ولكن نفسى كانت من كل هذا خلية ! فما تبعت فيها هذه المناظر الجليلة ولا تلك الصور الجميلة نشوة ولا بهجة ! لقد كنت أتأمل الأرض كأنها ظل منتقل أو خيال طائف !

إن شمس الأحياء لا تدفئ الموتى !

* * *

فكنت أنقل عينى من الربى إلى الجبال ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ومن ظلمة الغسق إلى

حمرة الشفق ، وأنفِض(١) السهل والوعر ، والمأهول والقفر ، عسى أن أجد لنفسى سعادة فى مكان ، أو أتوسم لقلبى راحة فى إنسان ، فلا أعود بطائل !

* * *

وماذا تصنع لى هذه الوديان والأكواخ والقصور ما دمت لا أجد لجمالها فى عينى روعة ، ولا لسحرها فى قلبي فتنة ؟

أيها الأنهار والأحجار والغابات والخلوات العزيزة علىّ ! إن غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خراباً ؛ وردّ أنسكن وحشة !

* * *

سواء علىّ أتطلع الشمس أم تغرب ، وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل أم ينير الصبح ، فليس لى بغية فى اليوم ولا رجية فى الغد

---

(١) نفض المكان : نظر إلى كل ما فيه ليعرفه

وحينما أرسل عينيّ تتبعان الشمس فى مدارها الرحب القصى لا أبصر فى كل مكان غير الفراغ والخلو ! لا حاجة لى إلى من تظله السماء ، ولا رغبة لى فيما تنيره الشمس

* * *

ولكن من وراء هذا الفلك الدائر وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلو أتيح لنفسي أن تخلص من قفصها لرأت فى تلك السموات حبيبها الذى طالما بكت عليه وحنت إليه !

* * *

هنالك أنتشى من رحيق الغبطة ، وأظفر بالأمل والمحبة ، وأنعم بما تافت إليه نفسى من متع لا تمر على سمع ولا تدور بخلد

ما أعجزنى أن أطير إليك وأنا مثقل بقيود المادة خاضع لجاذبية الأرض ! وليت شعرى لماذا قضى الله أن أبقى إلى الآن فى أرض المنفى وما تربطنى بها

رابطة ، ولا تصلنى بأهلها صلة !

* * *

إذا ما ذوت الأوراق فى المرج ، وأسقطها قر الخريف فى الوادى ، هبت عليها الشمال فذهبت بها أباديد ! وأنا بهذه الأوراق الذابلة أشبه ! فاحملينى أيتها الريح كما حملتها ، وانثريتى فى وجوه الفضاء كما نثرتها ، فما بعد الصباح إلا المساء ، وما بعد اليأس والوحدة إلا الفناء !



الوادي

تعب قلبي من كل شئ حتى من الأمل ،
فلن يثقل بعد اليوم بأمانيه علىَّ القدر .
فأعرنى يا وادى صبـــــاى وأحلامى ،
ملجأ يوم أنتظر فيـــــــه موافاة حمامى

* * *

ذلك هو الشِّعب يضرب في حشايا الوادى ،
والغابات الـكثيفة تقوم على سفوج الربى ،
وأدواحها الحانيـــــة تلقى الظلال على جبينى
فتملأ شعـــــاب نفسى بالسكون والغبطة

* * *

وهناك جدولان اختفيا تحت أعراش الخضرة ،
يرسمان فى انسيابهما منعطفات الوادى ،
ثم يمتزج منهما الموج بالموج والخرير بالخرير ،
ويفنيان وهما من المنبع على مدى قصير

* * *

كذلك جرى نبع أيامى جريان هذين الجدولين ؛
ثم ذهب من غير هدير ولا سمة ولا رجعة !
ولكن ماءهما كان صافيا شديد الصفاء ؛
أما نفسى فلم يتراء فى كدرها صفو ولا هناء !

* * *

إن طراءة الجدولين وبرودة الظلال ،
تعقلاننى طيلة النهار على ضفافهما الخصيبة ،
أهدهد نفسي على خرير مائهما السلسال ،
كما يهدهد الطفل على المناغاة الرتيبة (١)

* * *

آه! حبذا المقام هنا بعيداً عن الناس وحيدا مع الطبيعة!
يحيط بى سور أخضر من رياض الأرض ،
ويقوم حوالى أفق محدود فيه مجال للبصر ،
فلا أسمع غير همس الموج ولا أبصر غير وجه السماء

* * *

(١) الرتيبة التى تسير على نمط واحد Monotone

لقد رأيت كثيراً وأحسست كثيراً وأحببت كثيراً
ثم جئت هنا حيا لأبحث عن هدوء (ليتيه) (١) !
فيا أيها الوادى الجميـــــــل ! كن لى ذلك
النهر الذى يذهب بالنسيان هموم القلب ؛
فنى النسيَان وحده منذ اليوم سعادتى ونعيمى

* * *

إن قلبى فى رخاء ونفسى فى سكون ،
وإن ضوضاء العالم لتفنى قبل أن تصل إلى ،
كالنغم البعيـد يخفت على طول المـــــدى ،
ثم لا يقع منه فى الآذان إلا صـــــــدى

* * *

من هـــــذا المقام ومن خلال ذاك الغمام
أرى الحياة حولى تغوص فى غيابة الماضى

---

(١) Léthé فيما تزعم الأساطير الوثنية نهر من أنهار الأنفير Les enfers وهو مقام الأرواح بعد الموت ، تشرب منه هذه الأرواح فتنسى ماضيها ، وليتيه معناه النسيان

فلم يبق ماثلا غير الحب يقـــوى ويتجدد ،
كالصورة الـكبيرة تبقى على اليقظة من حلم تبدد

* * *

استروحى يا نفس فى هـذا الملجـأ الأخـير ،
كالمسافر اللاغب يجلس على باب المدينة ،
وقلبـــه ذاخر بالأمـــل والطمأنينـة ،
فيستنشى قبـل أن يدخل نسيم المساء العبق

* * *

فلننفض عن أقدامنا الغبار كما نفض هذا الرجل المجهود
فإنا لن نسلك هذا الطريق مرة أخرى ؛
ولننشق مثـله فى آخر المـدى المحـدود ،
نفحات الهـــدوء المبشر بالســـلام الدائم

* * *

إن أيامك الـكئيبة القصيرة كأيام الخريف ،
تنقبض انقباض الظلال عن حوادر الهضاب ؛
فالصداقة تغدر بك ، والرحمة تتخلى عنك ،

وتقطع وحـــدك الدرب إلى عالم القبور

* * *

ولـكن الطبيعة هناك تهيب بك وتحنو عليك !
فألق نفسك فى أحضانهـا التى لا تتجافى عنك ،
فإن كل شيء يتنكر لك وينزوى إلا الطبيعة ،
فجـوها هو الذى ينضـــح على آلامك ،
وشمسهـا هي التى تشرق على أيامـك

* * *

بالأشعة والظـلال لا تزال تحيطنـا الطبيعة ؛
فطهر قلبك من الغرور الباطل والمتاع الزائل ،
واعبدهنا الصدى الذى كان يعبده فيثاغورس ،
وأرهف أذنك مثـــله لموسيقى السماء .

* * *

ثم اتبع الشمس فى السماء والظل فى الأرض ،
وطـر فى السهـول مـع ريح الشمال ،
وجُس مع شعاع هذا الـكوكب الهادى

خلال الغابات فى ظلال هذا الوادى .

* * *

إن الله خـــلق العقول لتـدركه ،
فاكتشف فى الطبيعـــة خالق الطبيعة ؛
فإن صوتاً لا ينى يحدث المرء عن ربه .
ومن ذا الذى لم يصخ إلى هذا الصوت فى قلبه ؟



المساء

(قال لامرتين : « كنت منذ شهور قد فقدت موضوع الحماسة والحب ففضلت أقبر نفسى فى ظلام العزلة عنـد أحد أعمامى فى قصر (أروسى) لدى تلك الجبال الموحشة الشجراء من أعالى يورجونيا وهناك نظمت هذه الأبيات فى تلك الغابات التى تحيط بذلك القصر »)

أقبل المساء وهمدت الأصوات ، وأنا جالس على الصخور الجُرْد أتابع بنظرى مركبة الليل وهى تتقدم فى معمى الفضاء

* * *

ثم لاحت الزُّهرة فى حاشية الأفق ، وأرسل الكوكبُ العاشق على الأرض ضوءه الخفى ، فشعشع تحت قدمىّ خضرة الروض

* * *

ومن دوحة الزان ذات الورق الفينان واللون الأحْوَى ، أسمع اختلاج الأغصان كما تُسمع خفقان الأشباح بين أجداث الموتى

* * *

وعلى حين فجأة انفصل من كوكب الليل

شعاع تسلل إلى جبهتى الساهمة ، ومس فى لِينِ عينى الحالمة

* * *

أيُهـذا الانعكاس اللطيف للـكرة الملتهبة !
أيها الشعاع الباهر ماذا تبتغى منى ؟ أجئت تحمل إلى أحشائي المضطربة قبس النور إلى نفسى وعينى ؟

* * *

أهبطت من السماء لتفضى إلىَّ بسر العالم ، وتلقى علىَّ دفائن هـذا الـكوكب الذى يعيدك النهار إليه ؟

هل أرسلتك عناية خفية إلى البؤساء ، لتضيء قلوبهم بنور الرجاء ؟

هل هبطت لتبدد الظلام عن وجه الغد لتلك القلوب الـكسيرة التى تضرع إليه ؟

أيهـا الشعاع الإلهى ! أأنت فجر ذلك اليوم

الذى لا انقضاء له ؟

* * *

إن قلبى يشتعل فى ضوئك ، وشعورى يتملكه مرح مجهول ، وفكرى منصرف إلى أولئك الذين ضحا ظلهم (١) فى الحياة . فهل أنت أيها الضوء اللألاء ، أرواح أولئك الأحبّاء ؟

* * *

أنا أشعر بأنى أقرب ما أكون إليهم ! فلعل أرواحهم السعيدة ، قد لبست صورهم البعيدة ، ثم عادت تطوف بهذه الربوع ، وتجوس خلال هذه الغيضة

* * *

فإذا كنت أيتها الأشعة أشباح الأحبة ، فعودى إلىّ فى كل مساء ، بعيدة عن الغوغاء والضوضاء ، لتمتزجى بأفكارى وأحلامى ، وتنيرى

---

(١) ضحا ظله : مات من قولهم شجرة ضاحية الظل : أى لا ظل لها

ظلام ليالىَّ وأيامى

* * *

عيدى السلام إلى صدرى المضطرب ، والحب إلى قلبي الملتهب ، واسقطى على كبدى كما تسقط أنداء الليـــــل على قيظ النهار ولفح الهاجرة

* * *

تعالى إلىَّ وأقبلى علىّ ! ... ولـكن أبخرة محزنة تصاعدت من جنبات الأفق فحجبت ذلك الشعاع اللطيف ، ثم غابت هى وهو فى ظلام كثيف !

ذكرى

(كان لامرتين « قد حبس نفسه شهوراً طويلة فى شبه ناووس مع صورة من عبدها ثم فقدها » ثم « ألف الحزن والألم » وخرج من الفناء الذى ألقاه فيه موت جوليا حبيبته ، وراح « يتحدث بالمناجيات والصلوات والأدعية والشعر إلى شبحها الذى لا ينفك ماثلا فى خاطره » . وهذه القصيدة قد نظمها فى ربيع ١٨١٩ ، « على مقعد من الضخر حول ينبوع متجمد فى الغابات التى تكتنف قصر عمه فى (أروسى) ») (١)

عبثاً يتعاقب الجديدان ،
فلن يتركا أثراً فى حسى ،
ولن يمحوا صورتك من نفسى ،
يا آخر حُلم رآه الوجدان

* * *

إنى أرى أعوامى السريعة
تتراكم من ورائى هاوية ،
كما ترى السندیانة الرفيعة
أوراقها من حولها ذاوية .

---

(١) الكلمات التى بين الأقواس من كلام لامرتين

جُمَّتى (١) شيبتها السنون الجاهدة ،
ودمى أبردته فلا يكاد يجرى ،
كأن هـــذه الموجة الهامدة ،
لفحتها ريح الجنوب فلا تسرى

* * *

ولـكن صورتك الوضيئة الحبيبة ،
تلك التى يزيدهـــا أسفى جمالاً
لاتدركها فى قلبى الشيخوخة الـكئيبة ،
لأنها كالنفس لا تعرف عمراً ولا زوالا

* * *

كلا ، إنك لم تزايلى بصرى ؛
فإذا حيل بين عينى و بين رؤيتك ،
انقطع من هذه الأرض خبرى
واتصل نظرى فى السماء بصورتك

* * *

وهناك تبـــدين لى فى السماء

---

(١) الجمة مجتمع شعر الرأس

كما كنت فى يومك الأخـير ،
حين طرت إلى مقامك الوضّاء
مع الصباح المشرق النضـــير

* * *

جمالك النقى المؤثر يا حبيبتاه ،
يتبعك حتى فى ذلك الوجود ؛
وعيناك اللتان تنطفئ فيهما الحياة ،
تشعان ثانية بنـــور الخلود

* * *

وأنفاس النسيم الهائمـــة ،
تحرك أيضاً شـــعرك الطويل ؛
وخُصَـــله المتموجة الفاحمة ،
تعود فتسقط على صدرك الجميل (١)

* * *

وظل هـــذا النقاب الحائر ،

---

(١) أنظر قصة « رفائيل » الفصل العاشر والفصل الثالث عشر

يجلّى وجهك الوضـــاح ،
كأنما ســـدول الظلام الآخر ،
تنحسر عن محيـا الصباح

* * *

إن اللهب السماوى لهذه الشمس ،
يجىء ويذهب مع الأيام ،
وأنت تشرقين دائماً فى النفس ،
فحبى لا يعرف البرد ولا الظلام ،

* * *

أنت التى أسمعها فى الصحراء ؛
وأنت التى أبصرها فى السحاب والماء ؛
فالموج يعكس صورتك فى عينىّ ،
والنسيم يحمل أصواتك إلىّ .

* * *

و إذا خشعت الأصوات ونام الليل ،
وسمعت حينئـذ همس الهواء ،

حسبتنى أسمعك تغمغمين فى أذنى
بكلماتك المقدسة العذاب

* * *

و إذا ما أعجبت بهذه المصابيح المنتثرة
التى ترصع رداء الليل الساكن ،
حسبتنى أراك فى كل نجمة مزدهرة ،
تسترعى بصرى بلألائها الفاتن .

* * *

و إذا ما هب النسيم على الزهور ،
فأسكر النفس بنفحات العطور ،
كانت نفحتك هى الطيب الذى أنشقه ،
فيما يَبثه هذا النسيم و يطْلقه

* * *

إن يدك هى التى تجفف دموعى
حين أذهب فى حزن و بكاء
لأؤدى فى السر صلاتى وخشوعى

فى محـــاريب الدعاء والعـــزاء

* * *

و إذا نمت سهرت على سهر الخائف،
و بسطت جناحيك على آلامى ،
وأوْحيت إلىّ بجميع أحـــلامى
وديعةً كنظرات الخيال الطائف

* * *

و إذا قطعتْ يداك أثنـاء منامي
مجرى حيـاتى وأسـباب أيامى
فسأمحو — يانصف روحى العلوى —
بين حِضنك الحنون القدسى

* * *

ثم تصبح نَفْسانا نَفْساً واحدة ،
كشعاعين متحدين من أشعة الفجر ،
أو نفَسين ممتزجين من الأنفاس الصاعدة؛
ولـكنى لا أزال أردد أنفاس العمر !

دعاء

(أشار لامرتين فى كتابه (رفائيل) إلى الأشعار الأولى التى «انبجست من قلبه» والتى قرأها « دون أن يجرؤ على رفع بصره إلى التى رفعها إليها » ومن المحتمل أن تكون هذه هى الأبيات)

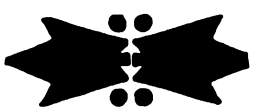
أنتِ يامن ظهرت لى فى صحراء هذه الدنيا ! ياساكنة السماء وعابرة هذه الأرض ! يا من أضأت لى بشعاع من الحب هذا الليل الغاشى ! اظهرى بشخصك كله لعينى المشدوهة ، وقولى لى ما اسمك ، وما وطنك ، وما حظك ؟ أأنت من سلالة أرضية ، أم أنت من نفحة قدسية ؟

✡ ✡ ✡

أتذهبين غداً إلى شهود الضياء الخالد ؟ أم لا يزال أمامك فى دار البعاد ودنيا الحداد وموطن البؤس خُطًى تقطعينها فى طريقك الشاق المتعب ؟ مهما يكن اسمك وحظك ووطنك يا ابنة الأرض أو يا ابنة السماء ، فدعينى ما دام ينبض بالحياة قلبى ، أقدم إليك عبادتى أو حبى .

✡ ✡ ✡

إذا وجب عليك مثلنا ، أن تستوفى أجلك وتبلغي مداك ، فكونى سندى ودليلى ، واسمحي لى أن أُقبِّل في كل مكان غبار خطواتك المحبوبة . أما إذا طرث يا أخت الملائكة عن دنيا الشقاء والجحود ، لتعيشى بجوارهم في دار النعيم والخلود ، فاذكرينى فى ملكوت السماء ، بعد أن أحببتنى أياماً على هذه الغبراء !



الشاعر المحتضر

تحطمت كأس عمري وهي مترعة ، وتصرمت حياتي زفرات في كل نفس ، وعيٌّ بإمساكها ما أرسلت من عبرات وحسرات ؛ وقرع الموت بجناحه الناقوس الباكي عليَّ مؤذناً بساعتي الأخيرة ؛ فليت شعري أأنوح أم أغني ؟ !

* * *

لِأَغنٍّ مادامت أناملي على القيثار. لأغن مادامت المنون تلهمني وأنا على باب الآخرة ماتلهم البجعةَ من صرخة موزونة وأنة ملحونة . وإذا لم تسكن النفس شيئاً غير الحب والألم فلم لا يكون وداعها لحناً قدسياً ؟ !

* * *

إن القيثار يبعث أجمل أنغامه حين ينكسر ، وإن المصباح يرسل أبهى أضوائه حين يخمد ، وإن البجعة ترفع طرفها إلى السماء حين تسلم الروح ، والإنسان وحده يرجع البصر إلى الوراء ليعد أيامه ويبكيها !

وما هذه الأيام التى تستدرُّ حوالب عينيه ؟ شمس تشرق متقطعة ، وساعات تمر متشابهة ، وخير تمنحه ساعة فتسلبه أخرى ، ثم عمل يتلوه راحة ، وألم يتبعه أحياناً حلم !

ذلك هو اليوم ، ثم يمحو آيته الليل !

* * *

ليبك ذلك الذى اشتد على حطام الدنيا حرصه ، وتعلق بأمانيها سببه ، ثم يرى حبل مستقبله يَنْبَتّ ، وظل آماله يتقلص ! أما أنا فأترك الدنيا فى سهولة ويسر ، لأن جذورى منها كجذور النبتة الرخوة من الأرض ، تهب عليها رياح المساء فتقلعها !

* * *

الشاعر أشبه شىء بالطيور العوابر ، لا تعشش على الضفاف ولا تقع على غصون العاب ، وإنما تهدهد نفسها على متون الموج ، ثم تمر مغردة على بعد من الشاطىء ، فلا يعرف الناس من أمرها غير ما يسمعون من صوتها !

* * *

أبداً لم تدرب يدى على الوتر الرنان يد مخلوق ؛ لأن ما تلهمه روح الله لا تعلمّه يد إنسان . فالجدول لا يتعلم كيف يجرى فى المنحدر ،والنسر لا يتعلم كيف يشق بجناحيه الهواء ، والنحلة لا تتعلم كيف تؤلف العسل !

✡ ✡ ✡

الناقوس تقرعه القوارع فى مكانه العالى ليوم بشرى أو يوم نعى ، فينوح مرة ويشدو مرة ، وأنا كنت بهذا الناقوس أشبه ! طهرنى الألم كما طهره اللهب ، وحركت الأوتار المختلفة أوتار قلبى فأخرجت لكل عاطفة نغمة !

✡ ✡ ✡

أنا كالقيثارة « الأيولية(١) » تعزف طول الليل من تلقاء نفسها على خطرات النسيم ، وتمزج خرير المياه بأنينها الرخيم ، فيقف السائر حيران دهشاً مما يسمع ! يطربُ ويعجب ولا يدرى

---

(١) نسبة إلى « إيول Eole » ، وهو فى أساطير اليونان والرومان إله الهواء وابن جوبيتير . وهذا الضرب من القيثارات ينصب فى الهواء فيعزف وحده على هبوبه

مصدر هذه الزفرات المقدسة !

* * *

قيثارتى تخضلُّ غالباً بالدموع ! وما الدموع للمرء إلا كندى السماء للأرض ! وهيهات أن ينضج القلب تحت السماء الصافية ! فالكأس المصدوعة يسيل منها عصير الكروم ، والريحان الذابل إذا وطئته قدماك ، تضوَّع شذاه بين خُطاك !

* * *

خلق الله نفسى من نغمة محرقة ، فمن يتصل بها يحترق بلهبها ! فيا عجباً لمنحة القدر ! أنا أسرفت فى الحب ، ومن ذلك الإسراف أموت ! مالمست شيئاً قط إلا حال إلى رماد ! كذلك رجوم السماء الساقطة على أشجار الخَلَنْج تنطفىء بعد أن تدمر كل شىء .

* * * *

ولكن العمر ! لقد استوفى أجله ! والمجد ! آه ! ومايعنيني من صدى نغمة باطلة تنتقل من عصر إلى عصر، وسمعة كاللعبة البراقة تنحدر من جيل إلى جيل ؟ أيها الذين وعدهم المجد سلطان

الغد ! استمعوا إلى هذا اللحن الذى يخرج من قيثارتي ! هل تجدون لرنينه أثراً فى الآذان ، بعد ما حمله الهواء إلى غير هذا المكان ؟

* * *

شهد الله أنى منذ حييت لم أذكر هذا الاسم العظيم إلا بازدراء . ولطالما عصرت هذه الكلمة التى اخترعها هذيان الإنسان فلم أجد غير هواء . هنالك لفظتها كما تلفظ الشفتان قشرة يابسة

* * *

فى سبيل هذا الأمل الخالب فى هذا المجد الكاذب ، يرمى الإنسان فى مجرى الزمن اسمه وهو عابر ، فيلقفه التيار ، وتضعفه الأيام كلما سار ، حتى يصير حطاماً تعبث به أمواج الدهر ، ثم تحمله على غوارب بها من عصر إلى عصر ، حتى تلقى به فى لجج النسيان !

* * *

أنا كذلك ألقى اسمى بين هذه الأسماء العائمة ، على هذه الأمواج المتلاطمة ، ثم أتركه على هوى الرياح والأمطار يطفو

و يرسب ! فهل يكون بذلك شأنى أعظم ومقامى أرفع ؟ ولماذا وكل ما هنالك اسم ؟ ! وهل تسأل البجعة الطائرة فى جو السماء : ألا يزال ظلها طافياً على أديم هذه الغبراء ؟ !

* * *

تسألنى لماذا كنت أغني ؟ (١) سل البلبل لماذا تتجاوب أغاريده وأناشيد الجدول طول الليل ؟ ! أنا أنشد يا صحابى كما يتنفس الإنسان و يشدو العصفور و يعزف الهواء و يخر الماء !

* * *

الحب والدعاء والغناء ثلاثة تقسّمن حياتي ! . . . ولم آسُ ساعة الموت على فائت مما يتشوف إليه الناس فى دنياهم إلا على زفرة حارة تتصعّد إلى الله ، وسكرة طروبة تهبط من القيثارة ، وصمتة عاشقة تعمق حين يتعانق قلب وقلب !

* * *

إن مثولك خاشعاً أمام الجمال تسمع رَجفان أوتار المزهر ، وترى حديث الهوى يمتزج مع أنغامه و يسرى فى حشاك ،

---

(١) يريد بالغناء الشعر

وتستقطر الدموع من العين المعبودة كما يستقطر النسيم أنداء الفجر من الزهرة المطلولة ...

* * *

وترى طرفها الشاكى يَصَّعد حزيناً فى السماء كأنما يطير مع النغم ، ثم يرتد واقعاً عليك وهو بالحرارة العفيفة يجيش ، وتبصر من خلال أهدابها المسبلة شعاع نفسها كالنار المضطربة فى حلك الليل البهيم . .

* * *

وترى ظلال أفكارها على جبينها الزاهر ترف ، والكلامَ على شفتيها المثقلتين يموت ؛ ثم تسمع بعد هذا الصمت الطويل هذه الكلمة ترن حتى تبلغ أذن الجوزاء ! تلك الكلمة التى يقولها الآلهة والناس هى « إنى أحبك ! »

ذلك هو ما يساوى فى الحياة زفرة !

زفرة ! حسرة ! هذا كلام لا معنى له !

على جناح الموت روحى تطير إلى السماء ! تطير إلى حيث ترى العين شعاع الأمل يضىء ! تطير إلى حيث طارت النغمة

التى خرجت من مزهري ! تطير إلى حيث صعدت جميع زفراتى !

* * *

الإيمان — وهو عين الروح — قد اخترق ظلماتى كما تخترق عين العصفور ما وراء الظلال الحزينة ! ثم باحت لي غريزته النبوية بما استسر من حظى ! وكم مرة اقتحمت نفسى آفاق المستقبل حتى بلغت السماء محمولة على أجنحة اللهيب!

* * *

فتقدمت بذلك الموت !

لا تنقشوا اسمى على قبرى الكئيب العابس . ولا تثقلوا بالبنا ظلى الخفيف . إن قليلاً من الرمل يكفينى ! لست وا أسفاه حريصاً ولا غيوراً ! ثم لا تتركوا من الفراغ أمام القبر إلا مقدار ما يضع الزائر العابر ركبتيه !

* * *

حطموا هذا المزهر وذرُّوا حطامه فى الهواء والماء واللهب ، فإنه لم يجاوب أهازيج النفس إلا بنغمة واحدة ! إن مزهر

الساروفين (١) ليرتجف تحت أناملى ! وعما قليل أعيش معهم فى عالم النغمات ، وأقود بقيثارتى ألحان السموات

* ✡ •

عما قليل ! إن يد الموت الثقيلة قد قطعت الوتر !

انقطع بعد أن أرسل فى أمواج الهواء نغمة شاكية صماء .

صمت مزهرى البارد يا رفاقى ! فخذوا مزاهركم وأدخلوا نفسى عالم البقاء ، بين خفق الأوتار وترجيع الغناء !

---

(١) الساروفين : طائفة من الملائكة

حزن او ملبيو

لفكتور هوجو

لم تكن الحقول غبراء ولا السماء كدراء حين أقبل يقضي ذمام هذه الربوع التى سال فى ثراها قلبه الجريح المثخن ، وإنما كان ضوء النهار يتألق فى أفق لازوردى غير محدود ، ويتدفق على بساط من أديم الأرض ممدود ؛ وكانت النسائم عابقة بالعطور ، والمروج حافلة بالخضرة والزهور .

• • •

وكان الخريف طلق الجوانب ، والسماء مذهبة الحواشى ، والربى حانية الخمائل المونقة على السهل وقد ضربت فى خضرتها صفرة قليلة ، والطيور هاتفة بأغاريدها الشجية القدسية ووجوهها إلى الله الذى ينم عليه كل كائن ، ويسبح بحمده كل شىء ، كأنما كانت تقول له شيئاً عن الإنسان !

• • •

أراد الولهان أن يرى كل شىء : يرى الغدير الطامى الذى يصطفق بجانب العين ، والطلل البالى الذى استنفد ما فى كيسيهما بالصدقة ، ودوحة الدردار العتيقة المعوجة ، وخلوات

الحب فى أجواف الغاب المترامية ، والشجرة التى استغرقا تحتها فى القبلات حتى ذهلا عن كل شيء

. . .

بحث عن الحديقة الغناء والبيت المنعزل والبستان الحادر ، والدارابزون الذى يغيب البصر من خلاله فى ممشى منحرف . وكان يمشى متكسر الوجه من الحزن ، شاحب اللون من الهم ، فيرى وا أسفاه لدى كل شجرة شبح الأيام الخوالى يقوم منتصباً على وقع خطاه المتئدة الثقيلة !

. . .

تجوّل طول النهار على طول المسيل وقد ملك إعجابه وجه السماء الضاحك ومرآة البحيرة المصقولة

ثم قيد بصرَه ما راعه من صور الطبيعة فى الحقول ، فتأملها ملياً ثم ذهب مع أحلامه حتى المساء

تجول سحابة النهار ذاكراً والهفى عليه مخاطره اللذيذة ناظراً من أعالى السوج ، دون أن يجرؤ على الولوج ، كأنه منبوذ من

منبوذى الهنـد !

فلما آذنت الشمس بالمغيب أحس فى صدره وحشة القبر وفى قلبه لوعة الهم ، فجأر بالشكوي وهتف بالنجوى يقول :

• • •

أيها الألم ! لقد أردت أنا المشترك الخاطر المسعور الفؤاد أن أعلم هل الإناء لا يزال محتفظاً بالسائل ؟ وأن أرى ماذا فعل هذا الوادى السعيد بما خلفت فيه من قلبي ؟

ما أقدر الزمن القصير على أن يغير كل شئ !

إيه أيتها الطبيعة ذات الوجه الضاحك والجبين الأغر ! ما أسرع ما تنسين ! وما أشد ما تقطعين العلائق الخفية التى تربط قلوبنا بكثرة استحالاتك وتغير حالاتك !

• • •

إن غرفنا التى اتخذناها من ورق الشجر الألف قد تهدمت، وإن الشجرة التى حفرنا عليها اسمينا قد ماتت أو تحطمت، وإن ورودنا النابتة فى الحظيرة قد عبثت بها أيدى الأطفال الذين

يقفزون فوق الحفرة ! و إن العين التى كانت تشرب منها ساعة القيظ وهى هابطة من الغاب قد قام على موردها جدار !

لله ما كان أجمل يدها حين كانت تغترف بها الماء ثم تدعه يتساقط من خلال أصابعها كنثير اللؤلؤ الرطب !

• • •

لقد رصفوا الطريق الغليظ الوعر الذى كنا نسير فيه جنباً إلى جنب فترتسم على رمله النقى قدمانا ، ويكون أثر قدمك الرقيقة الأنيقة بجانب قدمى سخرية حسناء، وضحكة استهزاء !

• • •

والحاجز الحجرى الذى قام على غاية الطريق حقبة طويلة — ذلك الحاجز الذى كان يحلو لها أن تجلس فوقه فى انتظارى — قد هد ركنه اصطدام العجلات الموقرة بالأعباء ، وهي آيبة تئن فى المساء !

• • •

والغابة أصبحت حطاماً هنا وأمست فينانة هناك ! ولم يكد يبقى من كل ما حللناه وتقمصناه شئ حى !

وأكداس الذكريات تبددها الرياح الأربع ككومة من الرماد الخامد قد ألوت بها الريح الدبور !

واويلتاه ! ألم يعدلنا وجود إذن ؟ هل مضت مدتنا وانقضت لذتنا ؟ أما يرجعها إلى صرخاتنا الضارعة الضائعة شيء ؟

النسيم يداعب الغصون وأنا أبكى ! ومنزلى ينظر إلى ولا يعرفنى !

. . .

والآن يمر غيرنا من حيث مررنا ، وسيرد آخرون هذا المورد الذى عنه صدرنا ، والحلم الذي بدأناه سيواصلون رؤياه ، ولكنهم مثلنا لا يستطيعون أن يبلغوا مداه !

. . .

ذلك لأن الناس فى هذه الحياة لا ينعمون ولا يكملون ، سواء فى ذلك الخبيثون والطيبون

وسيستيقظون جميعاً فى مكان واحد من الحلم ، إذ كلهم يبدأون فى هذا العالم ثم يتممون فى غيره

. . .

أجل ستأتى نوبة آخرين فينعمون فى ظلال الكن الساكن الآمن الفاتن بما وهبت الطبيعة للحب من خيال وجلال ولذة !

° ° °

وسيرث غيرنا حقولنا وطرقاتنا وخلواتنا ، ويستولى من لا تعرفين على غابتك يا حبيبتى ! ويقبل بعض النسوة الهوج إلى هذا الماء يبتردن فيه فيكدرن غمره الذى لمسته قدماك العاريتان فتقدس !

• • •

يا لله ! إذن ذهب الحب الذى أحببناه فى هذا المكان باطلا ! ولم يبق لنا شىء من هذه الربوات المزهرة التى امتزج فيها لهبانا فانصهر بهما جسمانا واتحد قلبانا

هيهات قد استرجعته الطبيعة التى لا ترحم ولا تألم !

• • •

بالله نبئنى أيتها المسايل الممرعة، والجداول المترعة، والعرائش

الموقرة بالعناقيد، والأغصان المثقلة بالأعشاش والأغاريد ! وخبرنني أيتها المغائر والآجام والأدغال ! هل تطربن قلباً غير قلبينا بهذه الأغانى ، وتناغين حبا غير حبنا بهذه الأناشيد ؟

• • •

لقد كنا ندرك لحن كلامك ، ونجعل مشاعرنا كلها أصداء لرجع أنغامك ، ونرهف أسماعنا لالتقاط ما يبدر أحياناً من بليغ شعرك ، دون أن نميط الحجاب عن خبيئة سرك !

• • •

أيتها الطبيعة المجلوة فى هذا الخلاء الجميل !

هل تظلين حين أرقد أنا وهى تحت صفائح القبر ، جامدة أمام موتنا وموت حبنا ، توالين حفلاتك وأعيادك ، وتواصلين بسماتك و إنشادك ؟

ألا تقولين لطيفينا إذا ما رأيتهما يجولان بين رباك وخلواتك، وفيما ألفا من جبالك وغاباتك ، ما يقوله جميع الأصدقاء لإخوانهم القدماء من سرائر القلب ونجاوى الضمير ؟

• • •

هل تستطيعين أن ترى دون أن يلوعك الحزن و يرمضك الأسى ، شبحينا يطوفان بمواقع خطواتنا ومواضع خلواتنا ، وأن تريها تقودنى فى عناق مكتئب إلى ينبوع منتحب يئن فى خفوت وهمس ؟

• • •

وإذا ما لجأ عاشقان إلى جوارك ، واختفيا عن العواذل تحت ستارك ، وخبآ سرورهما بين أزهارك ، فهل تُسرِّين إليهما هذه الكلمة ! »

« أيها الراتعان فى رياض الحياة ! اذكرا من طوح بهما الدهر فى قفار الموت ! »

• • •

لعمرك ما هذه المروج والعيون والغابات والسموات والبحيرات والسهول والحزون إلا عارة مستردة ! يعيرنا الله إياها لحظة من الزمن لنضع فيها قلوبنا وأحلامنا وغرامنا ثم يستردها

• • •

ثم يطفىء بعدذلك سراجنا ، و يدفن فى حلك الليل شعاعنا ،

ثم يوحى إل الوادى الذى انطبعت فيه صورنا ونفوسنا أن يطمس آثارنا ، ويمحو أسماءنا وأخبارنا .

. . .

لا بأس ! إنسينا أيتها الدار ! وأنسكرينا أيتها الحديقة ! ولا تذكرينا يا ظلال ! واحتل عتبتنا يا عشب ! وغط آثار قدمينا يا عوسج ! وغردى أيتها الطيور ! وتدفقى أيتها الجداول، وتكاثرى أيتها الأوراق ، فإن اللذين طويتن صحيفة ذكرهما لا يُنسيان !

وكيف نُنسي وأنتم خيال الحب نفسه ! أنتم الواحة التى يلاقيها المسافر فى وقدة الصحراء، والخلوة العظمى التى بكينا بها أحر بكاء ، وكل منا يده في يد الآخر !

. . .

كل الأهواء تمضى مع العمر . بعضها يحمل نقابه ، و بعضها يحمل مديته ، كدبر النحل (١) يسافر جذلان شادياً وجماعته تضمحل وتقل وراء الأكمة .

. . .

(١) دبر النحل : أفواجه

إلا أنت أيها الحب فلا شيء يمحوك ! أنت السحر وأنت الفتنة ! وسواء أكنت مشعالا بدوياً أم مصباحاً حضرياً فأنت الذى تشرق فى العيون و بين الضلوع ، وتستولى علينا بالبسمات وخاصة بالدموع !

إن الناس فى الشباب يلعنونك ، ولكنهم فى المشيب يعبدونك !



نفهم نابليون عن روسيا

لفكتور هوجو

كانت السماء تُساقِطُ الثلج ؛ وكان الفاتح قد قهره فتحه ، والنسر لأول مرة تَطامَن رأسه

يا للأيام العوابس ! لقــد تقهقر الإمبراطور وئيدَ الخطى تاركاً وراءه (موسكو) داخنة تحترق !

• • •

كانت السماء تساقط الثلج ؛ والشتاء القاسى يتدهدى قطعة فقطعة ، والبقاع البيض تتعاقب بقعة فبقعة ، والجيش قد وقع فى غمَّاء فلا يُعْرف له قائد ولا عَـلَم . وكان بالأمس أعظم الجيوش فأصبح اليوم قطيعاً من الغنم . واضطرب الأمر وتشعث النظام فلا يتبين له جناحان ولا قلب

• • •

كانت السماء تُساقط الثلج ، والجرحى يلوذون ببطون الخيل المبقورة ؛ ونافخو الأبواق على مداخل المعسكرات الليلية المحطمة قد جَمَّدَهم الصقيع وغشّاهم البرَدُ ، فظلوا فى أماكنهم واقفين على العتبات ، أو صامتين على السُّرُج ، وأفواههم المتحجرة قد

القصقت بأبواقهم النحاسية ؛ والسماء تندف(١) بالرصاص والقنابل مختلطة بكبب الثلج ؛ وجنود الحرس الإمبراطورى يفجأهم الروع فيمشون مفكرين وقد انعقد رُضابُ (٢) الجليد على شوار بهم الغُبر !

. . .

كانت السماء تساقط الثلج ، والريح الصرصر تهب ، والجنود يمشون حفاة على الطوى فى مجاهل الأرض ، فلم يعودوا أولئك القلوب التى كانت تنبض ، ولا تلك النفوس التى كانت تحارب ، وإنما أضحوا حُلماً يهيم في الضباب ، وسراً يجول فى الظلام ، وموكباً من الأشباح يضرب فى الأجواء القاتمة . وكانت الوحدة الشاملة المروِّعة تبدو فى كل مكان صامتة منتقمة ، والسماء الساكنة تجعل من طباقها ومن رُكام الثلج كفناً عظيماً لهذا الجيش العظيم . وكان كل جندى يحس فى نفسه دبيب الموت فى وحدة ووحشة

هل يتيح لهم القدر أن يخرجوا من هذه الأرض المشئومة ؟ لقد كانوا أمام عدوين : القيصر وريح الشمال ، والشَّمال كانت عليهم أشد . كانوا يلقون المدافع ويشعلون النار فى خشبها

(١) ندفت السماء بالمطر ! نطفت ، وبالثلج رمت به (٢) الرضاب تطع الثلج

ليستدفئوا . وكان كل من رقد منهم لا يصحو من رقاده . وكانوا يفرون شرازم فى وجوه الضلال والهم فتتخطفهم المنايا وتبتلعهم الصحراء ، فلو نظرت من صدعات الجليد لرأيت كتائبهم تحب أطباقه راقدة !

يا لَسَقطة هنيبال وعُقبى أتيلا !

لقد كان المهزومون والجرحى والموتى وصناديق الذخيرة وناقلات المرضى يتساحقون (١) على الجسور ليعبروا الأنهر . وكان الجند ينامون وهم عشرة آلاف فيستيقظون وهم مائة ! و (ني) الذى كان يتبعه جيش من قبل ، فر الآن بعد أن نازع ثلاثة من القوزاق على ساعته !

كانت الهتفات لا تنفك طول الليل تشق الآذان : من هذا ؟ هيا ! هجم ! هجم ! فيتناول هؤلاء الأشباح بنادقهم فيرون أن قد هجمت عليهم كتائب من الخيالة الفظاع ، وزوابع من الرجالة الشقر ، لهم صور كصور الهول المفزعة ، وأصوات كأصوات البزاة الصُّلع ! وهكذا باد فى غياهب الليل جيش بأسره !

(١) يتساحقون : يسحق بعضهم بعضا من الزحام

وكان الامبراطور واقفاً هناك ينظر ! كان كالسنديانة العملاق تفرعت [١] ذراها المصونة نكبة الدهر ، وهى الحطاب المشئوم ، ثم أخذ يهين عَظمتها بفأسه ، والسنديانة الحية ترتجف أمام شبح الثأر الفاجع . وتنظر إلى فروعها تتساقط من حولها فرعاً بعد فرع ، كان الجيش يموت قادته وجنده . لكل امرئ حِينه وحَينه [٢] . وكانت بقية السيوف من رجال الإمبراطور يحفون من حول خيمته فى إجلال وحب ، ويرون ظله على الأستار يذهب ويجئ ، فيتهمون القدر بإهانة جلالته ، ولا يخامرهم الشك فى يمن طالعه . ولكنه هو أدرك فداحة الخطب . واتجه رجل المجد إلى الله وهو من الهول الهائل فى دهشة ورعشة وحيرة . وعلم نابليون أن ما أصابه إنما هو تكفير عن شئ . فقال ووجهه الساهم ينم عن القلق ، وكتائبه على الثلج منثورة أمامه :

— أهذا هو العقاب يا رب الجيوش ؟

فسمع من وراء الغيب منادياً ينـاديه باسمه ويقول له :

« كلا ! » .

---

(١) تفرعت : تسلقت (٢) الحين بالكسر الوقت وبالفتح الموت

المُتردّد

مقتبسة من أرنست ليجوفيه

أعرف رجلا يعيش رخى الصدر آمن السرب في دار بهيجة وأسرة حبيبة ورفقة مخلصين . تلقى ذات يوم كتاباً من صديقين يدعوانه إلى رحلة خارج القطر كانت منذ طويل منتجع خاطره ومهوى فؤاده ، فوجد من فرصة الفراغ وجمال الربيع ووفاق الخليط مغرياً جديداً بها ، ودافعاً شديداً إليها . وكان صديقاه يطلبان جواباً حاسماً سريعاً . فوقف الرجل بين الأمرين وقفة المتخير المتحير ، لا يدرى أيظل فى هذا المكان المحبوب الذى يستبقيه ، أم يرحل إلى ذلك البلد الجميل الذى يستدعيه ؟

بدأ تردده هادئاً مقبولا كهدهدة المهد ، ثم ما لبث أن عاد مزعجاً مملولا كاضطراب البحر . كان ترجُّحه بين الإقامة والظعن أشبه بترجح الزورق على الماء الهادئ يدفع إلى الأحلام والأوهام . والمتردد واسع الخيال كثير الفروض ، فأخذ يقلب الأمرين في خاطره : يوازن بينهما منفردين ، ويتمناهما مجتمعين ، ويطمع أن يدركهما متعاقبين .

أزف الموعد والصديقان ينتظران الجواب إيجاباً أو سلباً ،

فلا بد أن يخرج من عماية هذه الحيرة ليكتب إليهما . جلس جلسة الكاتب وأخذ أهبته للكتابة ، ولكنه لم يكد يقر على الصحيفة يده حتى ساوره الشك فأمسك ! وأخذ فكره يتنقل بين المكانين ، ويفاضل بين المعنيين ، حتى انتهى به التردد إلى أيثار البقاء

آثر البقاء لأن الصديقين ربطاه بعدَة خفيفة ، لا بكلمة شريفة ، ولأن فى المتردد جرثومة من جراثيم الكسل . والمترددون أميل إلى الكف والإحجام دون العمل والإقدام . ذلك إلى إن مخيلته الخصيبة قد أنبتت له من الذرائع والأسباب ما وافق هواه : كيف يصدف عن مسرة هادئة أكيدة ، إلى أخرى جديدة غير أكيدة ؟ إنهم يمتدحون ذلك البلد بطيب هوائه وجمال مناظره ، ولم يعلموا أن فى الرحلة إليه والحلول فيه أضراراً تخاف وتحذر ! أين يجد ما يعدل زوجته العزيزة وداره الجميلة وحديقته البهيجة ؟ لقد أصبحت هذه الثلاث أجمل فى نظره وأجل لخيره منها قبل ذلك !

أليس من الحمق والجحود أن يغمط الإنسان مثل هذه

السعادة ؟ على أن هذا البلد بعيد الشقة ، ولا بد للراحل إليه أن يبيت ليلة فى القطار على فراش لا وثير ولا وطيء ، أو يعبر البحر متعرضاً لدُواره وأخطاره . وإذا أصابه مرض فى الطريق أو فى الفندق فماذا تكون عاقبة أمره ؟ ذلك فضلا عن الغذاء الدنىء والمسكن الوبىء والعناء المبرِّح

أجمع صديقنا فى الأمر رأيه ، ووطن على البقاء نفسه ، فكتب الكتاب بالرفض ودفعه إلى الخادم ليحمله إلى مكتب البريد القريب . ولكن الخادم لم يكد ينطلق بالكتاب حتى تحرك الشك فى نفسه ، وتغير المنظر الماضى فى عينه ، فكأنما سحر ناظره ، أو تبدلت مشاعره !

ذلك البلد الذى استخف به منذ قليل عاد فتجلى لعينيه فى صورة جذابة أنيقة ، وتلك الأحاديث العجيبة التى سمعها عنه تواردت على ذهنه تباعاً منمقة الحواشى بسحر جمال المفقود ، وحب استطلاع المجهول . ثم تمثلت أمام عينيه فوائد تلك الرحلة وملذاتها ، فعاد باللائمة على نفسه ! كيف عميت بصيرته عن هذه المنافع جمعاء ؟ وكيف اعتاقه عن هذا الأمر مئونة الإنفاق

والنصب ؟ إن متاعب السفر هى الصحة والقوة والحياة ! ولا شىء أذهب للعمر وأقتل للمرء من أن يظل قعيد بيته مخلداً إلى عيشة رغيدة وادعة ، وحياة متشابهة مملة ، تلك فرصة ما يحسب الدهر بمثلها يجود

رحلة ممتعة مفيدة ، وإخوان صدق ملئوا ظرفاً وعلماً . إن ذلك الرفض ضرب من البله والجبن !

تحول ذلك التوبيخ أسى وحسرة ، وبلغ به الحنق والشوق والخجل حد الهياج والقلق ، فأهوى بيده إلى الجرس ، وصاح بأحد الخدم أن يرد عليه الكتاب وحامله . فقال له : « إن الخادم يا سيدى انصرف إلى وجهه منذ ربع ساعة »

فارتد الرجل كاسفاً حزيناً ، وانقلب ما حوله مظلماً قبيحاً ، واستولى الضجر على نفسه ، وأصبح بيته الجميل الرحب أضيق فى عينيه من كِفة الحابل . ثم ما لبث أن عاد إلى نفسه وأخذ يفكر فى الكتاب الذى ذهب به الخادم ، فقرر أن المسافة إلى مكتب البريد يقطعها الخادم راجلا فى ربع الساعة . فإذا قطعها هو على سيارة استطاع أن يوافيه قبل أن يضع الكتاب فى صندوق البريد .

وما هو إلا رجع البصر حتى انطلقت به السيارة يشق صوتها

المزعج زحام الطريق ؛ ولـكنه لم يضع قدمه على عتبة البريد حتى كان الخادم خارجاً منه وقد أنجز عمله !

بهت صديقنا وكاد يستسلم لليأس لولا أن مر ذكر التلغراف على خاطره ، فبرقت أساريره وقال : إن الرسالة البرقية تصل قبل الـكتاب فتنسخه . ثم أخذ طريقه إلى مكتب التلغراف وشرع يكتب الرسالة ؛ ولـكنه ما بلغ الـكلمة الرابعة حتى جمدت يده على الورقة ! قال فى نفسه : إن الرسالة البرقية كالـكلمة الملفوظة إذا قيلت فلن تسترجع ، وسأكون بها مقيداً مأخوذاً . ألقى القلم وخرج من المـكتب يتنسم الهواء ، وطفق يمشى أمام الباب ذهاباً وجيئة وهو يسائل نفسه : أيكتب أم لا يكتب ؟

دقت الساعة دقتين فارتعد وقال : مالى أتردد ؟ يجب أن أقطع الرأى ، فإن الوقت وإن طال لا يسع المطال . ثم فـكر وقدر ، فجاء برأى خليط مبهم لم يلبث أن نزل عنه . وظل واقفاً يتصفح وجوه الآراء ليرى الرأى القاطع نصف ساعة كان فيهـا فريسة الهم والضجر !

إستقبح من نفسه هذا الضعف الشديد فاقتحم المـكتب ، وأتم الرسالة ودفعها إلى العامل وهو يقول فى نفسه : سأتبعها بأخرى إذا بدت لى فى الأمر بداءة

ثم انكفأ راجعاً إلى بيته يستعد ويتأهب ! وأقسم أن منظر ذلك البيت الذى يريد أن يفارقه غداً سيحيى فى مخيلته صورة رائعة الجمال شديدة السحر ، وإن زوجه وكتبه وأزهاره وأشجاره ستملك عليه وجدانه ؛ فلا يمنعه الخجل أن يصبح ناكثاً ما أمَرَّ وناقضاً ما أبرم !

* * *

لعل في القراء من يحمل وصف هذا الرجل على المبالغة ، ولكنى أؤكد لهم أن مكانه من الصدق مكان صورته الشمسية

إن التردد مرض من الأمراض لا يؤبه له لندرته . يصيب المرء فى حياته العملية ، فيغل يده ، ويشل عقله ، ويتركه فريسة للألم من ضعفه ، والخجل من صحبه . تظهر أعراضه فى صغار الأمور وكبارها ، فيكون فى انتقاء الثوب واختيار الحالة ، وفى الإقدام على الزيارة القصيرة والرحلة الطويلة ، ويدخل فى لذاذات الرجل وأعماله ، كما يدخل فى إدباره وإقباله

* * *

جرت بين هذا الصديق نفسه وبين زوجه هذه المحاورة منذ أسبوع ، فأنا أنقلها إليك بنصها لتزداد به معرفة .

قال وهو يهم بالخروج إلى مكان عمله :

— زينب ! أتشيرين علىّ بأن آخذ مطريتى ؟

— افعل يا على ما تشاء .

— أتظنين أن السماء تمطرنا اليوم ؟

— وما يدريني ؟

— آخذها والسلام !

— حسناً تفعل

— ولـكنها تضايقنى إذا لم تمطر السماء

— دعها إذن !

— ولـكن المطر إذا نزل بلل طربوشى وثوبى ؟

— خذها إذن !

— ما هذه الحماقة ؟ وما هذا التردد بين الأمر والنهى ؟ ليس للمشير إلا رأى واحد ! فهل ترين أنى أحسن إذا أخذتها ؟

— نعم !

— سآخذها إذن

— ولـكن الهواء دافئ ، والسماء مصحية ، وأخشى إذا دام الجو كذلك أن أذهل عنها فأفقدها . سأتركها قطعاً !

ثم سار يريد الخروج فلمحها معلقة على المشجب فأخذها وهبط السلم ذاهلا متباطئاً حتى بلغ البواب فدفعها إليه !

البؤساء

لڤكتور هوجو

— ١ —

الليل مُرْخى السدول ، والكوخ ظاهر الإملاق ، ولكنه محكم الإغلاق !

كان المسكن يغشاه الظلام ، ولكنك تحس شيئاً فيه يضيء خلال هذه العتمة

على حائطه علق الصياد شباكه ؛ وفي أحد ركنيه من الداخل تلمع بعض المواعين الحقيرة على صندوق الخبز ؛ وفى الركن الآخر يقوم سرير كبير قد انسدلت عليه أستاره الطويلة

وعلى مقربة منه حشيَّةٌ مفروشة على دكتين باليتين ، وخمسة أطفال صغار كعش من أعشاش الأرواح قد رقدوا عليها

وكان فى الموقد العالى بقية من الضَّرَم تلقى ضوءها الأحمر على السقف القاتم ، وبجانب السرير امرأة قد وضعت جبينها على حافته وهى جاثية تصلى وفى صدرها نجيَّة وعلى وجهها شحوب

تلك كانت الأم ، وهى وحدها في الكوخ ؛ ومن وراء هذا

(*) قد حذفنا من الفضول ما يجوز فى الشعر ولا يجوز فى النثر

الكوخ المظلم المحروم ، زفراتُ البحر المزبد المشئوم ، يرسلها سوداء فى السماء والهواء ، وفى الضباب والصخور

— ٢ —

كان الزوج يعمل فى البحر . وكان منذ طفولته بحاراً كتب عليه أن يلقى الحظوظ السودَ فى أهول المعارك . فهو فى المطر الواكف ، وفى الهواء العاصف ، محتوم عليه أن يخرج إلى الصيد لأن أطفاله يتضاغَون من الجوع . . . !

يخرج فى المساء إذا مد الماء وغمر سلالم الجسر ، ثم يقود وحده سفينته ذات الشرُع الأربعة ، وتبقى الزوجة فى البيت تخيط شراعاً ، أو ترتق شبكة ، أو تهيئ شِصاً . وتراقب فى غضون ذلك القِدر وهى تغلى على الكانون بحساء السمك . حتى إذا طاف الكرى بأطفالها الخمسة اتجهت هى إلى الله تصلى وتضرع !

* * *

غاب الرجل وحده فى ظلمات الليل ، وفى لجج المحيط ، والأمواج المتجددة تغالبه وتصرعه ، والخطوب المترصدة تجذبه وتدفعه

أيهذا العمل الـكادح ما أقساك ! الظلام شديد الحلك ، والجو قارص البرد ، والمـكان الصالح للصيد لا يكون إلا فى مصادم البحر بين الأمواج الرُّعن والهُوَى السحيقة ، فترى على مجاهل المحيط الواسع هذا المصاد المتدلل المتنقل على هوى السمك ذى الزعانف الفضية ، يضيق فيكون بمقدار النقطة ، ثم يتسع فيكون فى ضعف الغرفة ؛ والصياد مقضى عليه أن يجهد جهده ، فيحسب حساب المد والهواء ، ويوفق بين أفاعيل السماء والماء ، ليهتدى فى ظلام الليل وفى ضباب ديسمبر إلى هذه النقطة المتنقلة فى هذه الصحراء المتحركة !

الأمواج على طول الشاطئ تنساب انسياب الأفاعى الخضر ، والهـاوية تدور وتُدوِّمُ وتدوِّى فتصطك أعضاء السفينة من الرعب ، وتئن أدواتها من الهلع ، والصياد فى أحضان البحر المجنون يفكر فى زوجه جاني ، وزوجه جانى على البعد تناديه وتناجيه وهى تبكى ، فتتلاقى أفـكارهما فى الظـلام ، وأفـكار العشاق طيورٌ قدسية أبراجها القلوب

— ٣ —

كانت جانى تصلى وطير النورس بصوته الأصحل الساخر يزعجها ، وموج البحر بهديره المتكسر الصاخب يرعبها ، وأشتات الأطياف تمر بخاطرها فتقلقها . كانت تتمثل ذلك المحيط العجاج والملاح المحمول على ثَبَجه الغاضب ، وترى هذه الساعة الحائطية الباردة تنبض فى علبتها كما ينبض الدم فى عروقه ، فتساقط الأيام والفصول والأعوام فى خفاء الغيب قطرة فقطرة ؛ وكل نبضة من نبضاتها تفتح لأسراب النفوس : صقورِها وحمائمها المهودَ من جهة ، واللحودَ من جهة أخرى

كانت تفكر فى هذا الفقر المدقع الذى قضى على أطفالها أن يمشوا حفاة فى القيظ والزمهرير ، وأن يُعوزَهم خبز القمح فيتبلغوا بخبز الشعير !

رباه ! إن الهواء يفهق كالكير[1] ، والشاطئ يصوت كالسندان ، وكأنى أرى صور السماء ، تتطاير فى الزوبعة السوداء ، كما تتطاير زوابع الشرر فى دخان الموقد

(١) الكير منفاخ الحداد

هذا هو الوقت الذى ينتصف فيه الليل على الراقص المرح وهو يقصف هيمان بين ضحكات القلوب ومتع الأعين

وهذا هو الوقت الذى ينتصف فيه الليل على قاطع من قطاع الطرق عجيب ، ينتقب بالظلام والمطر ، أو يتصدى لملاح مسكين يرتعد من البرد فيحطمه على الصخرة الهائلة التى تظهر فجأة ؛ فيشعر المسكين — والموت يقطع زَويله وعويله — أن السفينة تنشق لتغوص ، وأن اللجة تنفتح لتبلع ؛ ثم يلمح فى خاطره وهو يهوى فى غيابة الفناء ولجة الماء ذكرى الحلقة الحديدية فى رصيف المرفأ المشمس !

فزَّعتْ هذه الرؤى العابسة قلب جانى فاضطربت اضطراب ليلها ، واستكانت لجزعها وويلها ، فلم ينفس عنها غير البكاء

— ٤ —

لله ما أشقاكن يا نساء الصيادين ! إن مما يرُوع النفس ويلوع الفؤاد أن تقول كل منكن لنفسها : « إن أبى وحبيبي وأخى وولدى وكل عزيز علىَّ هم جميعا فى ذمة هذا المضطرَب

العظيم ؛ وإن القدَر قد أباح للبحر الأهوج أن يعبث بهـذه الرءوس منذ كان المرء صبياً يتعلم ، إلى أن يصير زوجاً يتزعم ، وإنهم في هذه الساعة قد يحزبهم الأمر ، ويكربهم الهم ، فلا يدرون أين يسيرون ، وهم لا يملـكون لمقارعة هذه البحار اللجية التى لا قاع لها ، وهذه اللجج المظلمة التى لا نجم فوقها ، إلا قطعة من الخشب ومِزْقة من النسيج !

فإذا ما اعتلج فى صدرها الهم ، هبت مذعورة تجرى خلال الصخور وهى تسأل الأمواج ضارعة : « رديهم علىّ ! ! . . . »

ولـكن وا أسفاه ! ماذا عسى أن يرد البحر الذى لا يبرح فى تقلب واضطراب ، على الفـكر الذى لا ينفك فى تشتت واكتئاب !

* * *

كانت « جانى » أشد هما وغماً من ترائبها جميعاً ؛ لأن زوجها وحيد في جوف هذا الليل الشديد وتحت هـذا الـكفن الأسود ؛ وأطفاله لا يزالون صغاراً فلا وزَر له فيهم ولا عون !

أيتها الأم ! إنك تقولين اليوم وأنت ترين أباهم وحيداً :

ليتهم كانوا كباراً ! ولـكنك ستقولين غداً عندما ترينهم يذهبون مع الأب : ليتهم كانوا صغاراً ! »

— ٥ —

أخذت « جانى » مصباحها ورداءها وذهبت ترى هل عاد الزوج ، وهل سكن البحر ، وهل أشرق الصبح ، وهل ومض النور فى سارية الإشارة ؟

ها هى ذى تسرع الخطى فى الطريق ، ولـكن هواء الصبح لم يهب ، وضياء الفجر لم يلح . وكانت السماء تمطر ؛ ولا تجد أشد ظلاماً من مطر الصباح ! كأنما كان النهار يضطرب مخافة أن يوجد ، وكأنما كان الفجر يبكى كالطفل ساعة يولد !

* * *

وعلى حين فجأة لاح لعينيها وهما تتحسسان الطريق كوخ واهى الدعائم قاتم الأعماق فلا نور ولا نار . له باب لا يستقر من الريح ، وعليه سقف لا يسكن من القلق ، ومن فوقه تعبث الريح الصرصر بهشيم من القش الأصفر الـكريه المنظر ؛ فقالت

« جانى » : « عجيب ! مالى لم أفكر فى هذه الأرملة الفقيرة التى عثر عليها زوجى ذات يوم وهى وحيدة تكابد غصص المرض ؟ ! لا بد أن أعودها لأنظر ما حالها ! »

قرعت جانى الباب وتسمعت فلم يجبها أحد . فقالت لنفسها وهى تنتفض من البرد : « لا تزال مريضة ؛ وأولادها لا ريب يقاسون سوء التغذية ! لم يبق للمسكينة غير طفلين ! » ثم طرقت الباب ثانية ونادت : يا جارتى ! يا جارتى ! فلم يرد عليها أحد . فقالت جانى : لقد أثقلها النوم فلا بد من تكرار الطرق ومعاودة النداء . ولكن الباب فى هذه اللحظة أدركته نفحة من عناية الله فانفتح من ذات نفسه !

— ٦ —

دخلت جانى الكوخ المظلم الصامت ونور مصباحها يسعى بين يديها ، فوجدت سقفه كالغربال لا يمسك المطر ، ورأت فى صدره امرأة هامدة لا نبض بها ولا حس ! قدماها عاريتان ، وعيناها مظلمتان ، وهيئتها فظيعة . كانت هذه هى الأم المرحة

التى قضت حياتها الأولى فى بهجة وقوة ، فلم تزل الأيام والآلام تعرُكها وتبريها حتى لم يبق منها غير هذا الهيكل . كانت إحدى خراعيها قد تدلت على جانب الفراش الخشن ، وكان فمها المفغور ينبعث منه ازعب بعد أن لفظ الروح وهى تصيح صيحة الموت إذا سمع نداء الأبد

وعلى مقربة من سرير الميتة كان طفلان ذكر وأنثى ينامان باسمين فى مهـد واحد . وكانت الأم حين أحست دبيب المنية قد وضعت معطفها على قدميهما ، وثوبها على جسديهما ، حتى يحسا الدفء فى الساعة التى تسرى فى جثمانها برودة الموت !

— ٧ —

كان الطفلان ينامان ملء الجفون فى مهدهما النابى القلق . وكان المطر يهدر خارج الـكوخ هدير السيل ، والسقف العتيق يساقط الحين بعد الحين على جبين الميتة قطرة ، فتسيل على خدها الشاحب فتكون عَبرة . وكان الموج يصلصل كناقوس الخطر ، والميتة تتسمع فى الظـلام والسكون فى هيئة الأبله ؛ لأن

الجسم متي فارقته الروح بدت عليه حال الباحث عنها . وكأنك تسمع هذا الحوار بين الفم الذابل والعين الحزينة :

تقول العين للفم : ماذا صنعت بزفراتك ؟

ويقول الفم للعين : وماذا صنعتِ أنتِ بنظراتك ؟

* * *

وا أسفاه ! عيشوا أيها الناس وأحبوا ، وارقصوا ، واضحكوا ، واقطفوا الزهور ، وارشفوا الثغور ، وأحرقوا القلوب ، وأفرغوا الكؤوس ، فإن الله جعل مآل كل لذة إلى القبر ، كما جعل مآل كل نهر إلى البحر !

— ٨ —

ماذا صنعتْ جانى عند الأرملة الميتة ؟ ماذا تحمل تحت ردائها الضافى وهى تمشى ؟ لماذا يخفق قلبها وتسرع خطاها ؟ لماذا تعدو فى الطريق ولا تجرؤ أن تلتفت ؟ أى شئ تضمه فى الظلام خفية على السرير ؟ ليت شعرى ماذا سرقت جانى ؟

— ٩ —

عادت جانى بما تحمل إلى بيتها ، ثم وضعت كرسياً بجانب السرير وجلست عليه ساهمة الوجه كأنما تعانى وخز الضمير . ثم ضاق ذرعها بما تجد فألقت جبينها على حافة السرير وأخذت تغمغم بهذه الكلمات المتقطعة :

واحسرتاه عليك يا زوجى المسكين ! رباه ! ماذا عسى أن يقول ؟ ألا يكفيه ما يحمل من الهم ؟ وهل فضَل كَدْحه المرهق عن قوت أطفاله الصغار حتى أثقل كاهله بهذا العبء الجديد ؟

أهو هذا ؟ كلا ! لا شئ . لئن ضربنى زوجى لأقولن له : حسناً فعلت

أهو هذا ؟ كلا ! حسن ! إن الباب يتحرك كأن إنساناً دخل ، ولكن لا

رباه ! مالى أصبحت الآن أخشى عودة زوجى ؟

ثم اعتراها الوجوم فظلت ساهمة تغوص فى الهم كما يغوص الغريق فى اللجة . ثم فقدت الشعور بالدنيا فلم تعد تسمع فى الخارج

حركة ولا ضجة

* * *

انفتح الباب فجأة فانسكب فى الكوخ شعاع أبيض ، ثم لاح الصياد على العتبة يجر شبكته وهى تقطر من البلل ويقول بلهجة المبتهج : تلك مهنة البحر !

— ١٠ —

رأت جانى زوجها فهتفت به وعانقته عناق الحبيب . وكان الزوج فى أثناء ذلك جذلان يقول : هأنذا يا امرأتى ! ثم ينعكس على جبينه الذى يضيئه نور الكانون ، قلبُه المسرور الطيب الذى يضيئه حب جانى

— كيف كان الجو ؟

— كان قاسياً

— وكيف كان الصيد ؟

— كان سيئاً ! ومع ذلك أجدني قد وجدت السرور والراحة حين قبلتك !

لقد خرقت شباكى ولم أصد شيئاً ! ما كان أهول ذلك الجو ! لقد كان يخيل إلىّ أن الشيطان ينفخ فى الهواء ، وأن السفينة

المضطربة توشك أن ترقد فى الماء !

— وأنت ماذا صنعت فى هذا الجو القاسى !

فاستقلت الرعدة جانى وقالت :

— أنا ؟ لا شئ . لقد كنت أخيط كالعادة ؛ وكنت أسمع البحر يزمجر كالرعد فتدركنى روعة شديدة

أجل إن الشتاء شديد ؛ ولكن الزمن كله فى حياتنا سواء !

ثم قالت جانى وهى تضطرب اضطراب من فعل شرا :

— إن جارتنا الأرملة قد ماتت . ولعل موتها كان فى عشية الأمس بعد أن خرجت أنت . لقد تركت طفلين صغيرين : غليوم ومادلين . ذاك يحبو ولا يمشى ، وتلك تغمغم ولا تبين . لشد ما كابدت هذه المرأة الصالحة برحاء الهم والفقر !

* * *

فلما سمع الرجل هذا الخبر اتخذ هيئة الجد ورمى بقبعته المبللة فى كسر الكوخ ثم قال وهو يحك بأظفاره جلدة رأسه :

— يا للشيطان ! إن لنا خمسة أطفال فهل يصبحون سبعة ؟ إننا فى هذا الفصل الشديد نقضى بعض أيامنا على الحساء ، فماذا

نصنع ؟ ليس الذنب ذنبي . إنما هي مشيئة الله . إن من الحوادث ما يحار فى تعليله الفكر . لمـــاذا حرم الله هذين الطفلين أمهما وهما فى هذه السن وهذه الحاجة ؟ لا جَرَم أن أعمال الله لحكمة ، ولكنها كثيرا ما تخفى على غير البصير

اذهبى يا جانى فأتى بهما . إنى لأخشي أن يستيقظا فيستشعرا الخوف من وجودهما وحيدين مع الميتة

إيتى بهما يا جانى نخلطهما بأبنائنا ، ونشركهما فى ثرائنا ، وأنا واثق أن الله سبحانه وتعالى سيرزقنا من حيث لا نحتسب ، وسيبارك صيدنا فنكتسب أكثر مما كنا نكتسب

ماذا بك يا جانى ! أهذا يغضبك ؟ مالك لا تسرعين إلى تنفيذ رغبتى كالعادة !

فلم يكن جواب جانى إلا أن كشفت الستار وقالت متهللة :

« ها هما ذان ! ! »

مغرب الشمس في البحر

للكاتب الفرنسي شاتوبريان

كانت السفينة التى كنا نعبر عليها المحيط إلى أمريكا فوق سوية الأرض اليبس ؛ فلم يعد أمامنا مَدُّ الفضاء ، غير طبقين من زرقة البحر وزرقة السماء ! فكأنما كان نسيجاً أعده مصور فنان ليتلقى عليه آية إلهامه وإبداع فنه . وكان لون الماء قد ارتد إلى لون الزجاج المذوَّب ؛ وقد سرت فى الموج رِعدة قوية جاءته من ناحية المغرب ، مع أن الريح كانت تهب حينئذ من جهة المشرق . ثم ثارت من الشمال إلى الجنوب أمواج عالية ، كانت تفتح فى ثنايا أوديتها فُرَجاً طويلة يقع النظر منها على صحارى المحيط . كانت هذه المناظر المنتقلة تختلف وجوهها فى كل لحظة : فتارة تكون سلاسل من الرُّبى المخضرَّة كأنها أخاديد الأجداث فى مقبرة واسعة ؛ وتارة تكون أرسالا من الموج تتراغى أعاليه فتحكى قطعاناً من الغنم البيض قد انتشرت فى حقول الخلنج . وغالباً ما ينطبق الفضاء فلا ينطبق عليه تشبيه ، فإذا ارتفعت موجة على متن المحيط ، وانخفضت لجة فصارت كالساحل البعيد ، ومر رعيل من كلاب البحر فى خط الأفق ، انفتح الفضاء أمامنا

فجأة . إنما كنا نتصور اتساع المدى وانفساح الطرف إذا ما تسحب على وجه البحر ضباب خفيف ، فكأنما كان يزيد فى سعة الأفق ، ويدفع فى امتداد الجو !

آه ! لشد ما كانت صور الأقيانوس فى تلك الساعة مظهر عظمة ومثار حزن ! ولله تلك الأحلام التى يلقيك فيها ويغمرك بها ، سواء أكان بإيغال الخيال فى بحار الشمال بين الصقيع والزوابع ، أم كان بإرسائه فى بحار الجنوب على جزر الرخاء والغبطة ؟

كان غالبا ما يحدث أن نهب من النوم بعد وهن من الليل فنجلس على ظهر السفينة حيث لا نجد إلا ضابط النوبة وبعض البحارة يدخنون غلايينهم فى سكون وصمت . وكان كل ما يقع في الأذن إذ ذاك إنما هو صوت السفينة تشق بحيزومها عباب المحيط ، على حين كان شرار من النار يجرى مع الزبد الأبيض على جانب المركب . سبحانك اللهم ! لقد نقشت فى كل شئ آى قدرتك ، ولا سيما فى أطباق اللجج وأعماق السموات : ملايين من النجوم تشع فى القبة الزرقاء ، وبدر تم يتألق فى كبد السماء ، وبحر لجى من غير ساحل ولا حد ، ثم لا نهاية فى السماء وعلى الماء .

أبداً ما هزت قلبي عظمتك بمثل ما هزته فى هذه الليالى ، وأنا معلق بين الكواكب والأقيانوس ، فوق رأسى سعةٌ لا تحد ، وتحت قدمى سعةٌ لا تقاس

أنا لست شيئاً . إنما أنا ناسك ساذج . ولطالما سمعت العلماء يجادلون فى (الكائن الأول) فلم أفهم عنهم ؛ ولكننى لاحظت أن هذا الكائن المجهول يستعلن وجوده فى قلب الإنسان كلما نظر فى المشاهد العظمى للطبيعة

ففى ذات ليلة ساجية الحو هفافة الريح وجدنا أنفسنا فى تلك البحار الجميلة التى تنضح شواطئ (فرجينيا) ، وكانت الشرُع كلها مطوية ؛ وكنت أنا مشغولا داخل السفينة حين سمعت الناقوس يدعو البحارة إلى الصلاة . فأسرعت مع رفقاء السفر أمزج دعواتى بدعواتهم ، وأضم صلاتى إلى صلواتهم . وكان الضباط والركاب قد أخذوا مواقفهم على كوثل (١) السفينة ، والقسيس وفى يده كتابه قد وقف من دونهم قليلاً ، والملاحون قد انتشروا على ظهر المركب . وكنا جميعاً واقفين ووجوهنا بشطر قيدوم (٢) السفينة وهى ناظرة إلى المغرب . وكان قرص الشمس وهو على

(١) كوثل السفينة : ذنبها (٢) قيدوم السفينة مقدمها وصدرها

أهبة المغيب فى الماء يتراءى من خلال الحبال فى وسط الفضاء ، فكان يخيل إلى من نوسان كوثل السفينة أن الكوكب المضئ يغير أفقه فى كل لحظة ! وكانت قطع من السحاب قد انتثرت على غير نظام فى المشرق ، والبدر البازغ قد أخذ يرتفع بطيئاً فى الأفق . وكانت بقية السماء صافية الأديم سافرة الوجه ؛ وفى جهة الشمال انبعث من البحر إعصار يتألق بألوان المنشور الزجاجى كأنه عمود من البلور قامت عليه قبة السماء ، فتألفت منه ومن كوكب النهار وكوكب الليل مثلث باهر الجلالة !

إن الرجل الذى لا يدرك جمال الله فى هذا المشهد ليستحق الرثاء والرحمة ! أسبلت أرواق عينى (١) على الرغم منى حين حسر الرفاق قبعاتهم المقطرنة عن رؤوسهم وأنشدوا بصوت أصحل أبح نشيدهم البسيط : « سيرنا صاحبة المعونة وصاحبة البحارة »

لشد ما أثر فى نفسى صلاة هؤلاء الرجال وقد وقفوا وسط المحيط على لوح هش من الخشب يتأملون الشمس وهى تغرب فى اللجة : فالشعور بحقارتنا أمام عظمة اللانهاية ، وأناشيدنا المرسلة على الأمواج ، ودنو الليل بويلاته ومكايده ، وسفينتنا

(١) أسبلت أرواق عينه : سالت دموعها

العجيبة فى بحر مسجور بالعجائب ، وفريق من البحارة استولى على قلوبهم الإعجاب والخوف ، وقسيس جليل عاكف على الصلاة ، والله الذى تجلى للبحر فأمسك بإحدى يديه الشمس على حجاب المغرب ، ورفع بالأخرى القمر من مهاد المشرق ، وهو يسمع من خلال الفضاء المطلق أصوات خلقه ، كل أولئك لا يستطيع قلم أن يصوره ، ولا قلب مهما يدق شعوره أن يتصوره !



الزلة الأولى

للامنيه

قطعة رائعة التمثيل جليلة المغزى للامنيه ، وهو علم من أعلام الأدب الفرنسى ، وفيلسوف من فلاسفة المذهب الكاثوليكى ، وخطيب بليل اللسان من خطباء الدين والسياسة . ولد سنة ١٧٨٢ فى بلد زعيم البيان الفرنسى « شاتوبريان » ، ثم طار فى جوه فنشأ مثله لطيف الوجدان خصب المخيلة ، وثاب الفكر صحيح الرأى ، لا يخضع لنظام ولا يستكين لحادث . دخل الكنيسة راهباً ثم الجمعية العمومية نائباً ، فنصر الله فى الأولى والحرية فى الثانية . ثم صبا فى سياسته إلى الاشتراكية ، وفى عقيدته إلى الأرثوذكسية ، وحاول أن يقيم المسيحية على دعائم جديدة من الوضوح والبساطة . فلقى فى سبيل هذه الآراء الحرة سخط البابا وغضب الكهنوت وعنت الساسة .

أما أسلوبه فخطابى شعرى يعتمد على الصور الحية والتشابيه القوية ، ويسلك فيه مسلك « بوسويه » فى احتذاء الإنجيل ، واقتباسه منه أسلوب الرمز والتمثيل .

وهذه القطعة تمثل شبق الإنسان إلى الشهوة البهيمية وحاله

بعدها . فمثل الشهوان كمثل الظمآن يتحرق إلى اللذة الآثمة ، كما يتحرق هذا إلى الكرمة اليانعة ، ودون هذه اللذة آثام وأجرام ورجس كالمستنقع الذى يحول بين الظمآن و بين عصير العنب . وهنا يتصارع العقل والهوى ، وتوازن النفس بين نتانة الوحل و بين برودة العنب ، فيستخف الشهوان بالخطيئة اعتماداً على التوبة ، كما يستخف الظمآن بالوحل اعتماداً على الغسل . ولكن هيهات ! لا بد للجرح من أثر ، وللنتن الخبيث من ذفر .

* * *

قال لامنيه :

برّح به أُوار القيظ و بلغ منه سُعار العطش ، فأرسل طرفه فى الفضاء فرأى فى حضيض الأكمة كرماً تهدلت أغصانه وتدلت عناقيده . فهفا قلبه من الفرح ، وتاقت نفسه إلى بلوغ الكرم لينقع بثمره أوامه وينضج بشرابه كبده ، ولكن بينه و بين الأكمة مستنقعاً لا مناص من خوضه . وقف موقف الحائر لا يدرى أيقدم أم يحجم ؟ فتارة تدفعه حرارة الظمأ وتغريه برودة العنب وظراءة الكرم ، وتارة تقعد به وخامة الطين ونتانة الوحل

فلما لاحه العطش سولت نفسه إليه أن المستنقع قد يكون قريب الغور سهل المعبر . فما الذى يمنعه أن يجرب ما يفعله كثير من الناس ؟ على أنه لا يلوث غير قدميه ، وذلك أذى فى جانب ما يبغيه قليل .

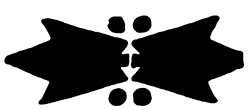
أطاع هواه واستجرّ لشيطانه ، فوضع قدميه فى المنقع حتى غاص فيه إلى ركبتيه . فوقف متردداً مرتاباً يداور الأمر فى نفسه ويقول : لعل الرجوع أخف مئونة وأحمد مغبة . ولكن الكرمة وعناقيدها أمامه ، والريق قد عصب من الظمأ فاه . . . فقال فى نفسه : أما وقد بلغت ما بلغت فليس من الرأى أن أرجع فيذهب ذلك العناء باطلاً . لا ينبغى بعد هذا أن أكترث لما ألقى من الوحل قل أو كثر ، فسأعود نقى الجسم طاهر الثوب إذا ما اغتسلت فى أول نهر أجده

أمضى على هذه الفكرة عزمه وتقدم ، فبلغ الطين صدره ، ثم عنقه ثم شفتيه ، وما لبث أن طم فوق رأسه ، فضاق صدره وحشرجت أنفاسه ، وكاد يصرعه الخُناق لولا أن استجمع قواه ونهض نهضة بلغت به جانب الأكمة

خرج والحمأ المسنون يسيل من أعضائه ، فأكل من الشجرة التى اشتهاها حتى إكتظ . ثم نظر إلى نفسه فأخجله ما رأى من بشاعة منظره وقبح زيه ؛ فخلع ثيابه وطفق يبحث عن ماء رائق يطهر به نفسه ويذهب عنه رجسه . ولكن هيهات أن يتم له ما يريد ! إنه مهما يفعل فإن الرائحة الخبيثة باقية تسطع فى الأنوف وتدفع فى الحلوق .

لقد نفذت أبخرة المستنقع فى لحمه وعظمه ، ثم أخذت تفوح وتنتشر ، فكونت من حوله جواً فاسداً عفناً لا يطيق الصبر عليه إنسان ، ولا يستطيع الدنو منه أحد .

لقد أراد أن يكون مع الزواحف ، فليكن كما أراد !



مؤلفات المؤلف

وحي الرسالة المجلد الأول ... ... الطبعة الثانية ... ...
« « « الثانى ... ... « « ... ...
« « « الثالث ... ... « الأولى ... ...
تاريخ الأدب العربى ... ... « الحادية عشرة
آلام فرتر ... ... « الثامنة ... ...
رفائيل ... ... « الخامسة ...
فى أصول الأدب ... ... « الثالثة ... ...
مختارات من الأدب الفرنسى شعر ونثر « الثانية ... ...
دفاع عن البلاغة ... ... « الأولى ... ...
جلاد الشيطان وأقاصيص أخرى ... تحت الطبع ... ...
ذكرى عهود ... ... « « ... ...
عبقرية الإسلام ... ... « « ... ...